أنوار معرفة علي

السيد فالح السيد أحمد
البدراني

بسم الله الرحمن الرحیم

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. وبه نستعين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

وبعد فقد مَنَّ الله تعالى على المؤمنين بالهدى ثم زادهم بالتقوى وبالشكر وقد كرَّه اليهم الكفر والفسوق والعصيان.[1] وكلفهم ضمن طاقاتهم[2] ولم يبخل عليهم بتعريف ذاته فأنزل محكم الكتاب على رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم). وامره بأن يبلغ ما انزل اليه فأمتثل.[3]

أما المؤمنون فقد ارتضوا بذلك وعملوا ثم ازدادوا منازل الصلاح بعملهم حتى يبلغ احدُهم ما شاء الله تعالى له ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾.[4] ويكتمل نورهم بكمال نواياهم يوم يَدعُون ربَّهم اذ يلقونه: ﴿**رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا**﴾.[5]

وفي سياق سلوك العبد نحو ربه بالعبادة يتقرّب من محبته تعالى ويفقهه تعالى بالدين بأن يجعل له وليّاً مرشدا.[6] أويجعل له سببا بالانتفاع الذي كتبه تعالى له فما على المؤمن الا ان يسلك نحو الله تعالى بالتعلّم والاسترشاد. قال تعالى ﴿**واسْألوا أَهْلَ الذِّكْر ان كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ**﴾،[7]

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (ابي الفداء اسماعيل) لسورة الحجرات الآية ٧

(٢) المرجع السابق آخر سورة البقرة

(٣) انظر سورة المائدة/ ٦٧

(٤) سورة يوسف/ ٧٦

(٥) سورة التحريم /٨

(٦) تفسير سورة الكهف/ تفسير ابن كثير آنف الذكر الآية /١٧

(٧) النحل/٤٣.

واهـل الـذكـر هم اولئك الذين نفعهم علمهم فأصبحوا يقتفون أثر الرسول الكـريم صلى الله عليـه وآلـه وسلم في امـورهـم كلها. ويمكن الأستدلال عليهم بالقياس الى ما عرف عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من احـوال واخـلاق واقـوال وافعـال. فالأتقى هو الاقـرب الى ذلـك وهـو المـرشـد الـذي يكـون علمه قواعدَ اساسيةً لفهم الدين الحنيف على وجه الصحة، واول هذا الفهم هو معرفة الله تعالى[٨] (مدار مواضيع هذا الكتاب).

اما المعرفة بالله تعالى فلا يمكن الاحاطة بها. الا انه تعالى قد عرّف نفسـه بمـا يكفي لعبـاده ان يعلمـوه. ولم يكتم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علما عمّن ينتفع به وقد بلّغ ما انزل اليه من ربه[٩] ولكن المعرفة بالله تعالى تتفاوت لدى البشر كما سيأتي شرحه في ابواب هذا الكتاب بعونه تعالى.

وقـد جاءت عبـارات هذا الكتاب من الآى الحكيم والحديث الشريف لأن المعرفة بالله تعالى تبدأ وتنتهي بذلك. اما اذا وجد القارىء غموضا أو لبسا في المعنى فما عليه الا الرجوع الى تفسير ابن كثير المشار اليه وكتب الحديث وأهل العلم لتمييز المعنى الموافق للقرآن الكريم والحديث الشريف.

جرى في الكتاب اتباع مبدأ الاكتفاء بما قلّ ودلّ فلم يورد من الأخبار والروايات والامثلة إلّا ما اقتضته الضرورة. فأن حصل تكرار لموضوع في اكثر من باب من أبواب الكتاب فذلك حصل لمقتضيات الضرورة لا سيما وان الصفـات الـربـانية متكاملة اي ان هناك عوامل مشتركة كثيرة بين صفة

---

(٨) تفسير سورة الأحزاب/ الآية ٢١.

(٩) انظر سورة المائدة/ الآية ٦٧.

وصفة مما اوجب التكرار.

اما تسمية الكتاب فقد جاءت مطابقة لمبدأ مواضيعه فهو (نور على معرفة)، اي قليل من النور على قليل من المعرفة وليس النور كله على المعرفة كلها فان ذلك يكون بالتقوى كما سيتضح في سياق البحث. ويكفي لهذا الكتاب ان يكون دليلا لقواعد اساسية يرتكز عليها القارئ في معرفة ربه تعالى. فمن صدقت نيّته ودأب على العمل فان الله تعالى لا يبخل عليه كما سيأتي شرحه بعونه تعالى.

سيُلاحِظ القارىء ان احدا من غير الانبياء عليهم السلام لم يذكر سوى ممّن ذكر من الصالحين في القرآن الكريم. وهذا ما يتفق مع الغاية وهي المعرفة بالله تعالى وليس معرفة الاشخاص. كما يتفق مع كون الصالحين (ممن اوصلوا لنا هذه المعاني عبر الاجيال سواء في مجالسهم اوكتبهم) لم يجهدوا أنفسهم من اجل ان يعرفهم الناس بل من أجل معرفة الناس بالله تعالى ولأجله تعالى. فقد بلغ بأحدهم ان يدعو الله تعالى بان لا ينسب هذا العلم له. وهذا ما يتفق مع صفته تعالى بأنه ﴿عَلَّمَ الانْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ﴾،[10] ولنفس السبب فإن هذا الكتاب لا ينسب لخادم علمه

(١٠) العلق/ ٥

الشـريف باخـراجه هنا وهو على وجل بأن يكون موضع اللوم والنقد لأظهار علم كهـذا بمظهـر قد لايبلغ درجـة اللياقـة وهـذا ما يدعوه لطلب المغفرة واستغفـار القـراء له، والكريم منهم لا يبخل عليه بذلك وبالدعاء الطيب. آمين وصلى الله وبـارك على سيـدنـا محمـد رسـول الله وآلـه الطـاهـرين واصحابه الكاملين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

السيد فالح السيد احمد البدراني
٢١ ٨/٨٦/٥ ٥ ~~[illegible]~~
السيدية، حي المعرفة. بغداد المحمية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾

الباب الأول

كيف تتسع المعرفة بالله تعالى

لا يذوق العبد جديدا بدون مبادرة منه اولاً فالذوق احسان من الله تعالى لمن بادر بالاحسان من العباد ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسَانِ الاّ الإِحْسَانُ﴾، (١) وقد شملت هذه النفحات الربانية عبادهُ في مختلف مجالات عبادتهم له تعالى فقال ﴿واتْقُوا الله وَيُعَلِّمُكُم الله﴾، (٢) و﴿إنْ تَنْصُروا الله يَنْصُرْكُم﴾، كما اشار تعالى الى أنه لا يدع مبادرة العبد بالمكر السيء تذهب بدون جزاء فقال: ﴿وَيَمْكُرون وَيَمْكُرُ الله﴾. (٤)

فاذا بادر العبد بالقرب من الله تعالى وبالانتصار للشريعة في عمله كله فأنه سيذوق سرورا يجعله في حالٍ من الايمان والثبات اكثر اتساعا مما كان عليه قبل المبادرة الحميدة وبذلك يكون مؤهلاً لمزيد من الله تعالى من علم وتوفيق وخير آخر اكثر.

وكمثال فيه مقارنة، اذا شعر العبد في صلاته بموقف كريم بين يدي ربه الكريم، الذي جعل نفسه اقرب للانسان من حبل الوريد، فان العبد بهذه الصورةالذهنية، والتي تسمى (حضور القلب أوتركيز الفكر)، سيكتسب حالا من السعادة لا يريد ان يفقدها.فاذا سوّلت له نفسه القيام بعمل مخالف لمعاني الصلاة فانه سيتذكر تلك السعادة الجديدة فيحافظ

---

(١) الرحمن/ ٦٠

(٢) البقرة/ ٢٨٢

(٣) محمد/ ٧

(٤) الانفال/ ٣٠

عليها بترك ذلك العمل المخالف ليبقى في رضى الله تعالى ﴿انَّ الصَلاة تَنْهى عَن الفَحْشَاءِ والمُنْكَر﴾ .[5] اما اذا كان المصلي بجسمه فقط، ولم يهتم قبلها باسباغ الوضوء وطهارة الثوب والبدن، ثم احتوشته (أي اجتمعت عليه) امور دنياه التي انشغل بها فلم يطردها بذكر الله تعالى بل خرج من الصلاة ولم يحصل له ذلك الذوق بالقرب الرباني فان صلاة مثل هذه لا يرجى لصاحبها ان يزداد بها قرباً من الله تعالى مثلما يرجى لصاحب الصلاة الاولى ولا يمكنه ان ينال بها تأهيلا لمزيد من معرفته بربه مثلما نال الاول.[6] فاذن يكون سبب اتساع المعرفة هو مبادرة العبد لتلقي كرم الكريم بما يليق بالكريم من قدر عظيم.

وهذه المبادرة والتفرغ عن غير الله تعالى لا تقتصر على الصلاة فقط بل تشمل نواحي العبادة الاخرى. فالجهاد، الذي هو ذروة سنام الإسلام، يتطلب الثبات وذكر الله كثيراً ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنوا اذا لَقِيْتُمْ فِئَةً فاثْبُتوا واذْكُروا الله كَثيرا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحون﴾،[7] وتلاوة القرآن الكريم، اذا لم يبادر القارىء الى ذكر الله تعالى في قلبه، فان فهمه يكون على قدر حاله مع الله تعالى. ولا بد هنا من بيان نواحٍ تشير الى فهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن لكي تتضح للقارىء صورة مثالية يمكن التوصل منها الى تمييز بعض الأسباب والفوائد في ذلك. وهذا ما سيتضح من الباب التالي ثم من الأبواب التي تليه تباعا بعونه تعالى.

---

(٥) العنكبوت/ ٤٥.

(٦) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ان الرجلين من امتي ليقومان الى الصلاة وركوعُهما وسجودُهما واحد، وان ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض» رواه الحارث بن ابي اسامة في مسنده عن ابن المحبّر

(٧) الانفال/ ٤٥.

الباب الثانـــــي
فهم معاني كتاب الله تعالى

القرآن الكريم أحرف في كلمات كما هي الكتب، ولكن الذي انزله، تفصيلا لكل شيء ورحمة وشفاء ولم يفرط فيه شيئا، قد جعله معانيَ مترابطةً متكاملةً تُستنبط منها العِبر والذكرى والدِّلالة لهذا التفصيل وهذه الرحمة وهذا الشفاء، وهكذا انزل محكما يحمل خاصية في فهمه بتفاوت، ويكشف اولئك الذين في قلوبهم زيغ عندما يتبعون المتشابه منه ابتغاء الفتنة، ويجمع قلوب الذي آمنوا على الحق فهو حبل الله الذي اذا اعتصم به المؤمنون لا تطول اليهم أسباب التفرقة.[1]

ولبيان ناحية واضحة من فهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن يدلنا الحوار التالي بين اثنين على ذلك. فقد كان كلاهما على علم بالشريعة واللغة العربية. وكان الاول يقرأ من احاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيئا فقرأ قوله (أشد الناس عذابا يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره. . .)[2] وقبل ان يتم قراءة الحديث لم يتبادر الى ذهنه ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سيشير الى الآية التي يؤخذ منها معنى هذا الحديث الشريف إلّا ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اردفه بايراد قول الله تعالى في سورة المؤمن ﴿. . **وَيَوْمَ تَقومُ السَّاعَةُ أدْخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذاب**﴾.[3] ورفع الاول نظره الى تأمل الفهم النبوي لهذا المعنى

---

(١) تفسير فواتح آل عمران في تفسير ابن كثير.

(٢) رواه البخاري في التاريخ بلفظ «اشد الناس ندامة ـ الحديث». ورواه الطبراني عن ابي امامة بلفظ «ان من شر الناس منزلة يوم القيامة عبداً أذهب آخرته بدنيا غيره».

(٣) المؤمن/ ٤٦.

وانجلت امامه أسبابه فاذا بالالمام النبوي للقرآن الكريم يتضح مما ارتبط من آيٍ حكيم في هذا المجال، فأراد ان يشاركه صاحبهُ في هذا الذوق السعيد فقال له:

الاول: ماذا يمكن ان نفهم من قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقومُ الساعَة أدْخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾

الثاني: واضح المعنى والمفردات والاعراب فماذا تقصد؟

الاول: ولكن ماذا لو اردنا فهمه على ضوء قوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنا في الكِتاب مِنْ شَيْء﴾[٤] وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِم عِبْرَةٌ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿وَمَا أنا بِظَلّامٍ لِلْعَبيد﴾؟[٦]

الثاني: القرآن الكريم بمحكمِهِ ومتشابِهِهِ لا تفريط فيه وان في قصة آل فرعون كغيرها عبرة لنا تدل على قدرته تعالى ولم يظلمهم تعالى في عقوبته لهم بل استحقوها بعملهم.

الاول: ولماذا اشد العذاب؟ بينما لم يدخل اشد العذاب كل الذين عصوا الرسل او حاربوهم؟ ولا يظلم ربك احدا.

الثاني: عملهم حسب تقديره تعالى استوجب اشد العذاب.

الاول: اذن اسمع الى ما فهمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذه العبارة القرآنية فهي اشارة الى تفهم طبيعة وخواص عمل آل فرعون في اختلافه عن خواص عمل اعداء الرسل والانبياء. فان عمل آل فرعون نتج عنه خسارتهم لآخرتهم وعدم كسب شيء في دنياهم لأنهم عمّروا دنيا فرعون وبقوا دون ان يعمروها لانفسهم.

---

(٤) الأنعام /٣٨
(٥) يوسف/ ١١١.
(٦) قاف/ ٢٩.

وهكـذا قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم : «أشد الناس عذابا يوم القيـامـة من باع آخـرته بدنيا غيره» .[7] ثم قرأ ﴿**وَيَوْمَ تَقومُ السَاعَة ادْخلوا آلَ فرعونَ أشَدَّ العَذاب**﴾ .[8]

الثاني : صلى الله عليـك وعلى آلـك يا رسـول الله . لولا فهمك وتفهيمك (فضلاً منه تعالى) لما كنا على بيّنة من امور ديننا .

يكفي للقارىء المؤمن هذا الحوار لأعطاء صورة ذهنية عن فهم القرآن الكريم وتفاوت هذا الفهم ، مما يدعو الى معرفة أسبابه وسبل السعي اليه . وهذا ما سيعالجه الباب التالي بعونه تعالى .

(٧) تقدم .

(٨) تقدمت .

الباب الثالـــث
التفاوت في فهم القرآن وفي معرفة الله تعالى

كان هناك فئتان يحضرون مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن ينزل بين ظهرانيهم ويتلى عليهم ولم يحجب عنهم الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسلم شيئـا بل امتثل للأمر الرباني بان يبلغ ما انزل اليه من ربـــه. ولكن ما بال فئـة من اولئـك قال عنهم تعـالى ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِـعُ إِلَيْكَ، حَتى اذا خَرَجوا مِنْ عِنْدِك قَالوا لِلذينَ اوتوا العِلْمَ ماذا قال آنِفـاً**﴾، [1] أي انهم الفئـة التي لم تفهم معـاني الـوحي الشريف وان كانوا على تضلّع بمفردات الكلمات وبالبلاغة واسرارها. وقد اوضح تعالى في سيـاق الكـلام عنهم سبب حجب الفهم عنهم بقوله تعالى مباشرة ﴿**اولئِكَ الذينَ طَبَعَ الله على قُلوبِهِم واتَّبَعو أَهْواءهُم**﴾، اذن كانوا مشغولين بأهوائهم التي لا تتبع ما جاء به القرآن فلم يُحمِّلْهم رب العزة تعالى حملين في آن واحد فالمشغولُ لا يُشغلُ. وليس هذا من الله تعالى ظلما ولا بخلا سبحانه.

امـا الفئـة التي سألوها، اي الذين اوتوا العلم، فقد وصفهم تعالى في سياق الكلام الربّاني لاحقا ﴿**والذينَ اهْتَدَوْا زادَهُم هُدىً وآتاهُم تَقْواهُم**﴾. [3] كما سبق في اول السورة نفسها (سورة محمد) ان قال تعالى ﴿**والـذينَ آمَنـوا وَعَمِلوا الصَـالِحات وَآمَنوا بِمَا نُزِّلَ على محمد وهو الحقُ من رَبهم، كَفّـر عَنْهُم سَيئـاتِهم وأَصْلَحَ بالَهُم**﴾. [4] فالـذين صلح بالهم

---

(١) محمد/ ١٦.

(٢) نفس الآية

(٣) محمد /١٧.

(٤) محمد /٢.

كانت مداركهم حاضرة مع صدق وتقوى مما أهّلهم لمزيد من المعرفة كمن يتسع أفق رؤيته عندما يرتقي مرتفعا.

هذا عن التفاوت بين مؤمن وكافر ممن قال عنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». [٥] اما عن التفاوت بين مؤمن ومؤمن آخر فيكون على قدر التفاوت بينهم في صفاء رؤيتهم لقَدْر الله تعالى وفي حُسْنِ ظَنّهم به كما سيأتي شرحه بإذنه تعالى. الا انه هنا يجدر ذكر قصة اعرابي حضر مجلس احد أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان قارىء يتلو آيات الذكر الحكيم وقد وصل الى قوله تعالى ﴿وكُنْتُم على شَفَا حُفْرَةٍ مِن النارِ فأنْقَذَكُم مِنْها﴾[٦] وسكت القارىء فقال الأعرابي: «والله ما انقذنا منها ليعيدنا فيها». فانشرح لذلك صدر الصحابي (رض) وقال للحاضرين: «خذوها من غير فقيه». وهكذا يبدو من فهم الأعرابي مدى ثقته بالله تعالى أنه اكرم من ان ينقذ مؤمنا من النار ليعيده فيها اخرى.

والحديث عن الفهم هنا يختلف عن الحديث عن الفهم الذي تقتضيه حكمة الله تعالى في إفهام عبادِه ما يشاء لما يشاء كما سيرد في الباب الثاني عشر الخاص بحُسنِ الظن به تعالى عن قصة سيدنا موسى مع العبد الذي أتاه الله تعالى رحمة وعلمه من لدنه علما. وكما سيرد عن قصة افهام سيدنا سليمان قضية الغنم اذ نفشت في الزّرع في باب آخر. وحديث هذا الباب كان عن التفاوت وسيلي ذلك الحديث عن الصفات التي تبدو أسبابا في هذا التفاوت في الباب التالي باذنه تعالى.

---

(٥) البخاري في البرهان.

(٦) آل عمران/ ١٠٣.

الباب الرابع
صفات متفاوتة لفهم متفاوت

يحضر مجالس العلماء كثير من الناس. فمنهم من قصد المجلس وقد انتوى طلب المعرفة والعلم لله تعالى وبالله لكي يسير على منهج القرآن الكريم حنيفا مسلما أي بِميلٍ قلبي منعطف نحو محبته تعالى وتسليم الامور لأمره أي التوكل عليه.[١] فالعبد المؤمن هنا قد ذاق ذوقا من سرور المحب بربه المحبوب ما دعاه لطلب المزيد من مِنَحِ الله تعالى في المغفرة والرضوان. وها هو العبد المؤمن يرى في العلماء الصادقين ورثة للأنبياء أي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٢] فكأنه اذا حضر مجلس احدهم قد حضر مجلس النبوة فتأدب في الحضرة الشريفة أي ترك ما سوى الله تعالى[٣] واقبل بقلب سليم. وها هو يرجو رحمةَ من يعلمُ السرَّ واخفى وما كان عطاؤه محظورا. فهل يبخل الكريم على مثل هذا العبد بالفهم الصحيح؟ كلا، بل يروي فؤاده بما يمد به ذلك العالم الذي سهر الليالي وافنىٰ الشباب في طلبه خالصا لوجهه الكريم. وهكذا توفرت عناصر الفهم من صفات العلماء وطالبي العلم.[٤] فاذا تغيرت صفة العالم الى طلب الدنيا بعلمه فان علمه لم ينفعه ولا يفهم منه ما ينفع. وان تغيرت

---

(١) حنيفاً: مائلاً.

(٢) روى الترمذي وابن ماجه عن ابي الدرداء قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «العلماء ورثة الانبياء» واورد ابن عساكر عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وآله وسلم «اكرموا العلماء فانهم ورثة الانبياء».

(٣) معنى الادب مع الله تعالى حسبما اورده القشيري في رسالته.

(٤) روى ابن حبّان في روضة العقلاء عن الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من ازداد علماً ثم ازداد بالله على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله الآ بعداً».

صفة طالب العلم الى دنيا يصيبها فانه يخرج حائرا في ما سمع.

ويتفاوت الفهم ايضا على قدر اتباع الهوى المخالف للشريعة. فالاهواء من هذا القبيل تحجب القلب عن الفهم المثالي فتحجب العقل الذي يستمد من القلب عن معرفة ضوابط النفس التي ترجع اليه في سلوكها فاذا بها بلا ضابط منطلقة الى حيث يشاء الهوى على قدر ضعف ضوابطها وسيأتي تفصيل ذلك باذنه تعالى في الباب الثالث والعشرين والابواب الاخرى الخاصة بعده. ولكن المهم هنا ان الله تعالى يحجب الفهم عن مثل هؤلاء بقدر انطلاقهم مع الهوى فالهدية الربانية لا تعطى لمن لا يعرف قدرها بالامتثال بها. (٥)

كما يحضر مجالس العلماء الصادقين اناسٌ بلغ بهم انطلاقهم مع الهوى ان تنكر قلوبهم ما يسمعون فيتصيدون المتشابه من القول لتفريق المؤمنين وعلامة هذا الصنف هي الجدل الخالي من التأدب إذْيَغْمِزاحدهم بكلام مبطن بالسخرية او كما يقال عنه: (كلام حق اريد به باطل) فاذا اتاه ايضاح بحجة لا طعن فيها تراه يحاول الخروج من المأزق بالمغالطة اعتزازا بالاثم ورفضا للحق وهكذا لم يتصف بتواضع طالبي العلم الذين يفتح الله لهم وعليهم ابواب رحمته تعالى.

كما ان هناك من يحضر مجالس العلماء الصادقين وقد اشرب حب الدنيا في قلبه فهو مذبذب لا الى الدنيا ولا الى الآخرة يريد ان يسمع من الدين ما قد يراه رخصةً لطلب الدنيا اكثر مما تعارف عليه الشرع الحنيف او لطلب الكسل في أداء العبادات بدون مبرر وهذا يدل على

---

(٥) انظر ايضاً باب (بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى) حـ٤ ص ٣١٢ من احياء علوم الدين للغزالي. طبعة الحلبي / القاهرة ـ لم تذكر السنة.

ابتـلاء العبـد بحب الـدنيا فيكون حجابه عن الفهم بقدر ميله للدنيا أي ان فهمه للعلم الرباني يقل عن اخيه الذي افرغ قلبه من المال والولد وجاء به سليما صافيا.

ان حجب الـذين اتبعـوا الهـوى أو احبـوا الـدنيا او انكروا تزول بالتوبة النصـوح فيأتيـه التأديب الـربـاني ويتلقـاه بالـرضى والشكـر حتى لا تبقى حجب عن الفهم كما لا تبقى حجب يوم القيامة التي قال عنها تعالى **﴿كلّا إنَّهُم عن رَبهِم يومئذٍ لَمَحْجُوبون﴾**.[٦]

وبتوالي التأديب الرباني الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[٧] يتسع افق المؤمن بالمعرفة أي تأتي معـرفتـه مرتبطـة بزوال الحجب حتى يكتسب الالـمـام والترابط واستنتاج العبر والفقه وكل ذلك بمحبة الله تعالى لمن يتبع سبيل الرشاد فالله تعالى يحب المحسنين ويحب الصابرين ويحب المتقين.[٨]

امـا المـزيـد من الفهم فان له أسسا يعتمد على ثباتها وقوتها في صحة الفهم باذنه تعالى ، كما سيلي بيان طائفة منها في الباب التالي بعونه تعالى[٩]

---

(٦) المطففين/ ١٥

(٧) ابن السمعاني في ادب الاخلاق عن ابن مسعود وصححه.

(٨) في خواتيم ايات عديدة من آل عمران.

(٩) قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من عمِل بما عَلِمَ اورثه الله تعالى علمَ ما لم يعلم» رواه ابو نعيم في الحلية.

الباب الخامس
اسس يقوم عليها الفهم الصحيح

لا يليق بالمعنى المهم الا فهمٌ صحيح يُظهِر أهميّته ويضعه في منزلته اللائقة. فكيف اذا كان المعنى متعلقا بالله تعالى، فان الفهم يجب ان يرقى لمعرفة الوحدانية الربانية وقدسيته المنزهة عن كل نقيصة. ولابد من التعرف على درجة صحة الفهم بالقياس الى قواعد صحيحه: فلو فرضنا ان تلميذا أراد معرفة المنصوب من الاسماء فانه لا يرجع الى استاذه كلما مر عليه اسم ليسأله هل هذا منصوب ام لا؟ بل يرجع اليه ليتعلم القاعدة التي بموجبها تنصب الاسماء فاذا عرفها، ثم عرض له اسمٌ، بادر الى القاعدة لمعرفة سبب نصبه او تأييد نصبه. وهكذا تحصل الفائدة التامة بمعرفة الله تعالى وفق قواعد هذه المعرفة كما جاءت في القرآن الكريم والتفهيم النبوي لها.

في حديث قدسي يقول تعالى: «ما تقرب إليّ به عبدى بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب العبد اليَّ بالنوافل حتى اكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها». [1] وفي رواية - «حتى يسمع بي ويبصر بي ويبطش بي» فاذا علم العبدُ بالله تعالى علماً فان عوامل الزيغ عن الفهم الصحيح قد انتفت لأن العلم كان بالله تعالى وليس بالنفس. اذن يمكن القول هنا ان من قواعد الفهم الصحيح ان:

١ - يؤدى العبد الفروض على الوجه التام الذي ورد في الشريعة.

٢ - يقوم بالنوافل: وهي السنن المؤكدة والتطوع العبادي.

---

(١) البخاري/ عن ابي هريرة.

والنوافل تشمل ايضا: الصيام في غير رمضان، والصدقات أي اعطاء المساكين اكثر مما مقرر من حقوق في الشريعة، والحج بعد الفريضة، والعمرة بعد العمرة الاولى والاكثار من ذكر الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي رفع الله له ذكره.

كما يقول تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبونَ الله فَاتَّبِعوني يُحْبِبْكُم الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُم﴾[٢] فالمحبة الربانية للعبد فيها دليل على انه تعالى يعطيه الدين اي الفهم الصحيح للدين. قال صلى الله عليه وآله وسلم «ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحبّ ولا يعطي الايمان الاّ من يحبّ»[٣]. اذن فاتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والذي فيه محبة من الله تعالى ومغفرة الذنب، يمكن ان يعتبر قاعدة يقوم عليها الفهم الصحيح وبذلك تكون ثالثة:

أي: ٣ - إتِّباع الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في:

أ - الاقوال: قال تعالى ﴿قُلْ لِعِبادي يَقولوا التي هي أَحْسَن﴾.[٤]

ب - الافعال: قال تعالى ﴿وقُلْ اعْمَلوا فَسَيَرىٰ الله عَمَلَكُم ورسوله والمُؤْمِنون﴾.[٥]

ج - الأحوال: قال تعالى ﴿مُحَمدٌ رسولُ الله، والذين مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكُفّار رُحَماء بَيْنَهُم تراهُم رُكّعاً سُجَّداً يبتغون فَضْلاً من الله ورِضْوانا، سِيماهُم في وجوههم من أثرِ السجود﴾[٦] و﴿يُحبّهم

(٢) آل عمران/ ٣١

(٣) الحاكم، والبيهقي في الشعب/ عن ابن مسعود.

(٤) الاسراء/ ٥٣.

(٥) التوبة/ ١٠٥.

(٦) الفتح/ ٢٩.

ويُحبونه﴾[٧] و﴿لا يَخْشَوْن احداً الا الله﴾[٨] و﴿اذا ما غَضبوا هُمْ يَغْفِرون﴾[٩] و﴿رَضيَ الله عَنْهُم ورَضُوا عنه﴾[١٠] و﴿اذِلّة على المُؤمِنين أعزّةٍ على الكافرين﴾[١١] و﴿الذين يَمْشون على الارض هَوْنا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما* والذين يَبيتون لِرَبهم سُجّداً وقياما﴾ .[١٢]

د ـ الاخلاق: قال تعالى ﴿وانَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيم﴾ .[١٣]

كما قال تعالى : في سورة الزمر ﴿فَبَشِّر عبادِ * الذين يستمعون القولَ فَيَتَّبِعون أَحْسَنه اولئك الذين هَداهُم الله واولئكَ اولو الالباب﴾[١٤] أي انه اتباعُ الأَوْلَى «بفتح الهمزة وسُكون الواو» اي تحرّي الافضل لدى الله تعالى وبذلك يمكن القول بان تكون القاعدة الرابعة كما يلي :

٤ ـ الاستقامة على اتباع الأَوْلَى أيْ عدم التكلف . فقد قيل (التكلف هو الخروج عن الاستقامة) اي ان الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا ترتاح اوتطمئن الا اذا اتبع صاحبها ما وضعه الله تعالى لها من منهج مستقيم فهو الذي فطرها ومن رحمته ومحبته وضع المنهج الذي يسعدها . فالخروج من الاستقامة هو تكليف للفطرة وقد قال الرسول

---

(٧) المائدة/ ٥ .

(٨) الاحزاب/ ٣٩ .

(٩) الشورى/ ٣٧ .

(١٠) البيّنة/ ٨ .

(١١) المائدة/ ٥٤ .

(١٢) الفرقان/ ٦٣ و ٦٤ .

(١٣) القلم/ ٤ .

(١٤) الزمر/ ١٧ و١٨ .

الكريم صلى الله عليه وآله وسلم «اني بريء من التكلف وصالحو امتي». [15] فاذا مال القلب نحو الطاعة فقد اتبع منهجا من الفهم الصحيح لمعرفة ربه تعالى.

وكمال الامور يأتي بالاستزادة من تكملتها. أي ان الطاعات والاستقامة تكمل بالشكر وهو عدم الاستعانة بنعم الله تعالى على معصيته مع شعور بالامتنان القلبي على هذه النعم مع الشعور بالتقصير في أداء حقها وحق مانحها ـ ومن هذا يمكن القول بأن القاعدة الخامسة في صحة الفهم هي.

٥ ـ الشكر.

كما ان الخَلقَ الربانيَّ للبشر كان لعبادته تعالى. فالعبادة الصحيحة هي التي تدور حول غاية العبادة الصرفة الصافية عن كل مكسب غيرها أي عبادته تعالى لأنه لا اله الا هو وهذا يعني التحرر من عبودية من لا يتصف بهذه الصفة وبذلك يكتسب العبد الحرية الصحيحة لأن الرب العظيم في غِنَىً عن عبادته اذ جعلها سببا لسعادة العبد[16] ﴿وأَن اعْبدوني هذا صراطُ مستقيم﴾. [17] وهذا هو الاخلاص الذي يمكن القول أنه القاعدة السادسة:

اي ٦ ـ الاخلاص: وهو صدق النية لله تعالى لا لجنةٍ أو لِتجنّب النار.

كما ان كل فضيلة في اعمال المؤمن (ضمن حدود التقوى) تقربه من

---

(١٥) مسند الفردوس/ عن الزبير بن العوام ـ ذكره في كشف الخفاء حـ ١/ ٦١٠ ص ٢٣٢.

(١٦) ذكره القشيري في رسالته.

(١٧) يسٓ/ ٦١

الله تعالى ﴿إنَّ اكْرَمَكُم عند الله اتْقاكُم﴾[18] وهي بذلك من قواعد الفهم. قال تعالى ﴿واتَّقوا الله وَيعلّمكم الله﴾[19] وتعليم الله تعالى يكون بنفحاته التي تصفو معها معرفة العبد المؤمن التقي كما تصفو الزجاجة النقية اذا زال عنها الدرن. وتظهر دلالات صفاء المعرفة على المؤمن كما سيتضح من الباب التالي باذنه تعالى..

---

(18) الحجرات/ 12.

(19) البقرة/ 282.

الباب السادس
دلالات على صفاء المعرفة

عندما يتفق أثنان على مقاييس جمال أو قبح فان معرفتيهما تكونان موحدتين ببعضهما اذ لا يفصل بينهما حاجز من خلاف. وعندما يرى العبد المؤمن كافة الامور على ما يراها الله تعالى، أي يرى طيبا ما يراه الله تعالى طيبا، فالعبد المؤمن عندئذ قد نظر بنظرة ربانية، أي بنور الله تعالى. وهذا ما يمكن تسميته بـ(صفاء المعرفة) لأن نظرة الله تعالى لا يشوبها ما يشوب نظر الانسان المبتعد عن الشريعة.

ان المؤمن الذي يمتعك وجههُ لمنظر امرأة ارتضت من التبرج ومن تعرية اجزاء من جسمها مالا يرضاه الله تعالى، يتميّز عن ذلك الذي يعتبر نفسه متمتعاً بالنظر الى تلك المرأة في غفلةٍ عن رب يراه. فيقال للثاني أنه يجهل الاسس التي يميز بها القبيح عن الجميل ﴿**يَعْلَمونَ ظاهِراً من الحياةِ الدُّنْيا، وَهُمْ عن الآخرةِ هُمْ غافِلون**﴾[1] فالمعرفة المشوبة بالزيغ لا يمكن ان تكون كالمعرفة بالنظرة الصافية.

ويحافظ المؤمن على الشريعة في سياق عبادته لله تعالى وبذلك يستقيم على صفاء المعرفة أي تكون الاستقامة احدى دلالات ذلك الصفاء وصدق من قال: «الشريعة طريق الحقيقة».

ويؤدى تبصر المؤمن بالعاقبة الى ميل القلب نحو اتباع الافضل وهذا يعني المجاهدة والصبر على المكاره الذي يورث السرور الناشيء من

---

(١) الروم/ ٧.

استبشـار القلب من جرّاء العمـل الصالح فيظهر السرور على وجهٍ لا ترهقه ذلة وبذلك يمكن ان يعتبر التبصر بالعاقبة دليلا او دلالة على صفاء المعرفة .

ولكن صفـاء المعـرفـة ليس هو الغـايـة بل هو الـوسيلة الى معرفة الله تعـالى . ومعـرفتـه تعـالى مجـازيـة ومعـانيهـا مطلقة : فاذا صفت المعرفة بالمعـاني المحسـوسـة فقـد صفت المعـرفة المجازية بالله تعالى وهذا ما يعالجه الباب التالي بأذنه تعالى .

الباب السابع

التعلم بالمحسوس للوصول الى معرفة المعاني المجازية

ان صفات الالوهية والمُلْك والقدسية والسلام والايمان للمؤمنين - أي تزكية صدقهم عن يقين - والهيمنة والعزة والجبروت والتكبر قد وردت في آية واحدة في القرآن الكريم. [1] وهذه الصفات الحسنى ليس لها هيئة مادية تعرفها الحواس الانسانية من شكل ولون يمكن تصويرهما للغير. فكيف امكن ويمكن التوصل الى معرفة جلالها لكشف جلال الخالق المتصف بها، سبحانه وتعالى؟.

نرجع الى المعاني المادية في حياتنا اليومية. فهناك مثلا ثمرة فجة خضراء يعافها مقتطف الثمار فيتركها وبعد ايام يتغير لونها الى لون النضوج ويحين قطافها فيقال: (لقد نضجت). فاذا عُرِف رجل قد عركته التجارب وندر عنده الخطأ وتصرف بالحسنى فان منظر الثمرة الناضجة يتمثل امام من يراه فيطلق عليه صفة النضوج. وهكذا استعير معنى محسوس من اكتمال منظر النضوج وملمسه في الثمرة الى معنى غير محسوس بالحواس بل مجازى او مطلق لم يكن بالسهولة التعبير عنه بكلمة واحدة لولا استعارة معنى نضوج الثمرة.

ولا يمكن ان يذهب أب بولده الطفل الى أُستاذ جامعي ليُعلّمه الألف باء، بل يذهب الى مدرسة ابتدائية فيها معلمون تخرّجوا كمربين على يد مدرسين قام بتدريسهم ذلك الاستاذ الكبير فكان الاستاذ مصدرا لتربيتهم

---

(١) الحشر/ ٢٢ ﴿هُوَ اللهُ الذي لا إلـهَ الاّ هُوَ الملكُ القُدّوسُ السَلامُ المؤمنُ المُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبّار المُتَكَبِّرُ سُبْحانَ الله عَمَّا يُشْرِكون﴾.

وان كان اكبر من أن يقوم بنفسه بتربية أطفال الابتدائية وهذا ما يمكن تسميته بأن المعلم الباطن هو الاستاذ الكبير، وان الظاهر هو المعلم الابتدائي. وهكذا يُدْرَكُ قدرُ الله تعالى كمعلم للانسان ما لم يعلم ولكن مع كونه تعالى الكبير المتعال فانه يخلق المعلم ويُثبِتُ ذلك ان هناك تلاميذ يفوقون معلميهم في المستقبل في سعة علمهم وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أوعىٰ من سامعٍ». (٢)

نعود الى المعاني المحسوسة لمعرفة القرب والبعد، فاذا سكنت عائلتان في دارين متجاورتين قيل ان احداهما قريبة من الاخرى، فاذا انتقلت احداهما الى دار ابعد كثيراً وبقيت ذكراها قريبة من قلوب الثانية قيل ان الاولى لا تزال قريبة بل اقرب من ذي قبل. فالقرب الثاني هو قرب مجازى امكن معرفته من القرب الملموس بتجاور العائلتين وهكذا يمكن القول بان القائد الذي يقبع خادم ومعين على مقربة من باب غرفَتِه أقرب منهما الى الوزير الذي يبعد عنهم بعدا بعشرات الفراسخ وذلك لتقارب الوزير والقائد في المنزلة وليس في المكان. وكذلك يمكن ان نقول ان امر المدير العام اعلى من أمر المأمور الصغير وان كان المأمور يعمل في الطابق العلوي من دائرة المدير العام. وهذا يعني أن الآمر هو الأعلى سلطةً. وهكذا نفهم معنى «سبحان ربي الاعلى» في السجود بأن أمر الله تعالى هو الاعلى في قلوبنا ونفوسنا.

وبنفس السياق يعبر عن معاني العاطفة بما عرف من دلالاتها فرفق

---

(٢) روى الامام احمد والترمذي وابن حبّان عن ابن مسعود قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نضّر الله امرء سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمعه فرب مبلَّغٍ أوعىٰ من سامع» مبلَّغ بتشديد اللام وفتحها. / حديث صحيح.

المـربيـة بالبشـاشة المرئية واللطف الملموس مع طفل في دار حضانة يدل على الرحمة التي لا يمكن تصويرها في الخيال الا بالحركات اللطيفة التي رأتها العين. وقد قيل في علم المنطق (يعرف المجهول من المعلوم).

كما ان في المعاني المحسوسة تفاوتا لمن ذاق الحالات التي توصف. فاذا قيـل أن أبـانـا آدم عليـه السلام شعربسرور اللقاء بعد الفراق عندما تاب الى الله تعـالى وشعـر بقبـول توبتـه فكـان ذلك اطيب في نفسه من الجنة التي أُهبِـط منهـا، وكـان يسمـع ذلك القول شخص ذاق سرور اللقاء بعد لهفة الشوق من بعد الفراق، لكان فهم الشخص هذا افضل في فهم احسـاس ابينـا آدم عليـه السـلام من شخص آخـر لم يفـارق ولم يتلهف. وقد طلب عاملٌ العفوَ والصفحَ مِن رب عمل على الاساءة بحق عمله فعفا عنه ولكن العـامـل بقى في انكسـار قائـلا: لقد عفا عني ولكنه غير راض عني. وهذا يعطي معنى قولـه تعـالى ﴿وَرِضْـوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَـر﴾.[3] اي اكبر حتى من عفوه تعالى.

ينطلق الفهم من المعـاني المحسـوسة المحدودة الى رحاب اوسع من المـادة في فهم المعـاني المطلقة المجازية التي لا حدود لها فهي كلمات الله تعـالى. وبهـذا يتفـاوت العلم لدى النـاس وان كانت رؤيتهم بعيـونهم متسـاويـة. اذن فالاتسـاع في رحـاب كلمـات الله تعـالى هو خارج حدود حواس الانسـان أي أن احـاطة الانسان بالمعرفة لا تأتي من حدوده بل من حدود ربه الى المدى الذي يشاء سبحانه وتعالى ﴿ولا يُحيطُونَ بِشَيْء مِنْ عِلْمِـهِ الاّ بِمـا شاء﴾.[4] فالعبـد المؤمن الـذي يطلب العلم يسعى لمزيد

---

(٣) التوبة/ ٧٢.

(٤) آية الكرسي/ سورة البقرة/ ٢٥٥.

المعرفة بطلبها ممن زادهم تعالى قبله ﴿**وأسْأَلوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمـون**﴾[٥] وهم المـرشدون وعلامة علو معرفتهم بالله تعالى تعرف بدرجة تمسكهم بما كان عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ما سيلي شرحه في الباب التالي بأذنه تعالى.

(٥) الانبياء/ ٧.

الباب الثامن
الاسترشاد بالمرشدين

ان الله تعالى ليطلّعُ على القلب المؤمن فان رآه مؤهلا لنور علمه تعالى فانّه يجعل له ميلا نحو المصادر التي يتزود منها بالعلم. وفي الآية الكريمة، ﴿وَلَوْ عَلِمَ الله فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ ،[1] ايضاح لذلك فآلله سبحانه وتعالى اكرم من ان يضيع ايمان عبد مؤمن من غير امداده بالمزيد. وقد قال تعالى عمن يضلهم باستحبابهم الضلال: ﴿ومَنْ يَضْلِلْ فَلَنْ تَجِدْ لَهُ وَلِياً مُرْشِدا﴾ .[2] اما الذين يهديهم بايمانهم فانهم سيُيَسّرون للولي المرشد. ويمكن التعرف على علامات استعداد العبد المؤمن للمزيد من العلم ان يكون المؤمن:

- سالكاً طريق الشريعة الى الله تعالى.
- حنيفاً، اي يميل قلبه للسمع والطاعة.
- صادقاً: أي مُصِرّاً على الثبات الذي يأتيه من الله تعالى بالطاعة فان نازعته نفسه للمعصية انتصر لله تعالى ودحر الشيطان.
- صابراً، ويعلم ان الله قد امر بتبشيره بان عليه من الله صلوات ورحمة ﴿وَبَشِّر الصَّابِرين﴾[3] .
- صامتاً: لا يطلق الكلام باللغو او الافتراء على الله الكذب او ابتغاء الفتنة.

---

(١) الانفال/٢٣.

(٢) الكهف/ ١٧.

(٣) البقرة/ ١٥٣.

- عفيفاً لا يهتز لمناصب الدنيا والآخرة وان اسند اليه شيء منها جعله وسيلة لِنَيل رضا الله تعالى .
- يميز من يطيعهم بان يكونوا ممن يدعون ربهم بالغداةِ والعشيّ يريدون وجه الله تعالى ومن لا يطيعهم بأنهم ممن اغفل الله قلوبهم عن ذكره واتبعوا اهواءهم وكانت امورهم فرطا .(٤) وقد قيل في ذلك : «ما افلح من افلح الا بصحبة من قد افلح ، وما خاب من خاب الا بصحبة من قد خاب» .

وها هو المؤمن الصادق يبحث دائبا عن الحكمة أين يجدها وعن الشريعة اين يدرسها وعن الذين يُصْبِر نفسه معهم فاذا به يجد الولي المرشد الذي آتاهُ الله تعالى حظاً وافرا من اقتفاء اثر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فاذا بالمهيمن تعالى يمده على لسانهم وفي افعالهم ما يجعله على صراط مستقيم .

ويجدر ان يتعرف المسترشد المؤمن على مرشديه من عرضهم على خطوات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وعلى ما يمكنهم ان ينفعوه به مع معرفتهم بالمراحل التي يحتاجها في سلوكه فان المرشد العالم هو الذي يسلك بطالب علمه سبيل الوصول بالرفق . قال صلى الله عليه وآله وسلم «ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» .(٥)

---

(٤) انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة الكهف في تفسير ابن كثير.

(٥) احمد عن انس ، والبيهقي عن جابر

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تجلسوا عند كل عالِمٍ إلّا الى عالِمٍ يدعوكم من خمسٍ الى خمسٍ : من الشكِ الى اليقين ، ومن الرياء الى الاخلاص ، ومن الرغبة الى الزهد ، ومن الكِبَرِ الى التواضع ، ومن العداوة الى النصيحة/ رواه ابو نعيم في الحلية .

وقد جعل الله تعالى لكل فئةٍ مَنْ يُعلِّمها على قدرِ استيعابها ثم اذا اتسع ادراكه واتقى زاده وما ذلك على الله بعزيز. ويعرف تقييم المرشد من طلاب علمه وقيمة تقدمهم على يديه في سلوكهم نحو صحة العبادة. فالتعلم الصحيح يؤدى الى المعرفة الصحيحة والمعرفة الصحيحة تؤدي الى العبادة الصحيحة. فما هي صحة التعلم؟ هذا ما سيتناوله الباب التالي باذنه تعالى.

* * *

الباب التاسع
العلم الصحيح وسيلة الى الله تعالى

ان الله تعالى هو المعلم للانسان ﴿عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] ولكن وسيلة التعليم التي يختارها تعالى لعباده المؤمنين تظهر معلما من عباده وتبطن هيمنته تعالى. فكما سبق بيانه فان العالم الصادق يمثل الحضرة النبوية صلى الله عليه وآله وسلم بصفته وارثا وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالعلم من ربه ولهذا فان العبد المؤمن الصادق الذي يسير على هدى هذه الحقائق، يتخذ من مرشده موقف التأدب والصبر والطاعة ولسان حاله يردّد ﴿يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر سَتَجِدُنِي إنْ شَاء الله من الصَابِرين﴾.[2] وهذا ما يتطلبه النّضوجُ العلمي والثقة بصحة السلوك وحسن الظن بالله تعالى.

والتعلم هو هجرة من الجهل، فاذا كانت الغاية من هذه الهجرة هي الله تعالى وجواره في الجنة فان التعويض الرباني يكون أوفر مما ضحى به المهاجر وقد بشر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أحد الصحابة الذين وصلوا المدينة تاركين ما يملكون بقوله: «ربح البيع»[3] وهكذا لا تخيب غاية طالب العلم طلباً لذات الله تعالى فانه سيكسب رضاه وهذا ما يضحى لأجله بالانفس والاموال ﴿إنَّ الله اشْتَرىٰ من المُؤْمِنين أنْفُسَهُم وأَمْوالَهُم بأن لهم الجَنة﴾[4] فما اطيبه من عوض على الصبر والتقوى. وسيعرض الباب التالي تعويض الله تعالى بزيادة رحمته وفضله العميم.

---

(١) العلق/ ٥

(٢) الصافات/ ١٠٢.

(٣) الحارث ابن ابي اسامة في مسنده وابن ابي حاتم عن سعيد بن المسيب.

(٤) التوبة/ ١١١.

الباب العاشر
تعويضه تعالى لمن اتقى

يشعر العبد وهو يرتفع في منازل سيره نحو الله تعالى ، بالشكر واجبا واعترافا بالفضل وتقديرا لقدره العظيم وليس انشغالا بالنعمة عن المنعم او طلبا للزيادة. وهذا يشمل العلم بالله ومعرفته تعالى حتى يجد العبد نفسه في تسليم ينبعث من يقينه بأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا اكثر او اقل من ذلك وان الذي يملك له كل ذلك واكثر ربٌّ تجلت رحمته لعباده الذين نشدوه فتركوا سواه فعوّضهم عن فقرهم لكل شيء بغناهم به ، فهو الذي يسوق الخير ويصرف السوء وهو الذي ينزل عليهم الملائكة ليعوضوا خوفهم أمناً وحزنَهم سروراً ﴿**تَتَنزَّلُ عَلَيْهم المَلائِكَة الاّ تَخافوا ولا تَحْزَنوا**﴾[1] وهو الذي يكتب لوجوههم نورا يسعى بين ايديهم وبايمانهم يوم تبيض وجوه، وذلك هو الفوز الكبير بالرب العظيم.

إنّ المؤمن الصادق يكتسب من علم الله الذي أتاه يقيناً لا يشعر معه بالاسى على مافات ولا بالفرح على ما يأتي وذلك لعلمه ان ما فاته وما يأتيه ما هو الا اثبات لقيمته التي سيظهرها الله تعالى من علمه الأزلي بها.

وهكذا يخرج المؤمن من غفلته عن مجرى الأمور الى فطنةٍ بمن يجريها فيستعيض عن غفلته بالذكر وعن جهله بالعلم وعن حيرته بالمعرفة الصافية من نظرته للامور نظرة ربانية قال تعالى في سورة الحديد ﴿**ما أصابَ من مُصيبةٍ في الارضِ ولا في انْفُسِكُم إلاّ في كِتابٍ مِنْ قَبلِ انْ نبرَأها إنّ ذلك على اللهِ يَسيرٌ * لكي لا تَأْسَواعلى ما فاتَكُم ولا تَفْرَحوا بما آتاكم والله لا**

---

(١) فصِّلت/ ٣٠.

يُحِب كلَّ مُخْتالٍ فَخور. ﴾[٢] فكيف يـرى المؤمن بنور الله تعالى؟ هذا ما سيتناوله الباب التالي بأذنه تعالى.

* * *

(٢) الحديد/ ٢٢ و٢٣.

الباب الحادي عشر
الرؤية بنوره تعالى

ان اشعة الضياء المرسلة من مصدره، نحو المواضيع المرئية، خافيةٌ على العين ولكنها تُعرف من آثارها فاذا كانت الرؤية بها جليةً واضحةَ المعالِم لا يختلف عليها ذوو النظر السليم يقال عندئذ بان الاشعة طبيعية كما هي اشعة الشمس، فاذا أُلقِي ضياءٌ ملوّن كانت الرؤية مخدوعة فاذا ضعف مصدر الاضاءة تحددت الرؤية فاذا انطفأ الضياء انعدمت.

فالمعنى المجازى المتعلق بنور الله تعالى هو رؤية الامور على حقيقتها التي يعلم الله تعالى وضوحها وجلاءها على ما هي في علمه ﴿الا يَعْلَمُ من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير؟﴾[1] فاذا اختلفت الرؤية عن حقيقة الامر فان خداعا قد حصل من نفس أمارة بالسوء. قال تعالى: ﴿أفَمَنْ كان على بَيِّنَةٍ من رَبِهِ كَمَنْ زُيِّن له سَوءُ عَمَلِهَ واتَّبَعوا أَهْواءهُم﴾.[2] اذاً لابد لِرؤية الامور، بعين البصيرة، على حقيقتها من رجوعٍ الى حكم الله تعالى فيها اي يتخلص اولا من الدرن والكدر الذي يعكر الرؤية من مخالفةٍ ومعصيةٍ.

لننظر مثلا الى ما تراه النفس الامارة بالسوء، مالم تتب الى الله تعالى، في دينار حرام يحل في يدها: انها ستراه مبلغا يزيد في قوتها الشرائية ولا يهم كيف حلّ في يدها. اما النفس المطمئنة بالله تعالى، اي استمدّت التمييز من عقل يستمد نوره من قلب سليم فانها سترى الحرام إمّا ناراً كما

---

(١) المُلْك/ ١٤.

(٢) محمد/ ١٤.

قال تعالى ﴿إنَ الذينَ يَأكُلونَ أَموالَ اليَتامىٰ ظُلْماً إِنَّما يَأكُلونَ في بُطونِهِم ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾، [٣] وإما حصيلة سلب بالسيف إذا اخذ من شخص بالحياء فقد جاء في الخبر: «من أخذ بالحياء فقد اخذ بالسيف». وإمّا اقرع له زبيبتان يمسك يوم القيامة صاحبه من شدقيه كما اخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حقيقة المال المكنوز الذي لم تدفع زكاته، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من آتاهُ الله مالاً فلم يودِّ زكاته مُثِّل له مالُه يوم القيامة شجاعاً اقرع له زبيبتان يُطوَّقه يومَ القيامةِ ثم يأخُذُ بلَهازِمِهِ فيقول انا مالُكَ الذي كنزت» لهازمه: اشداقه. [٤] وهكذا عن المال ثم تتوالى حقائق الامور الدنيوية كما ستؤول اليه في الآخرة فالمخدوع يرى ظاهرها كما تهواه الانفس السيئة ويغفل عن حقيقتها في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَعْلَمون ظاهِراً من الحياةِ الدُّنْيا وهُمْ عن الآخرةِ هم غافِلون﴾. [٥] والصادق في سلوكه نحو الله تعالى تتبين له الحقائق شيئا فاكثر حتى يستقر على رؤية الحقيقة اذا استقر على نهج المنهج الرباني اي على التوكل على الله تعالى فلا يكون للشيطان عليه سلطان فيزين له السيء الى حسن خداع. ﴿انَّهُ لَيْسَ له سُلْطان على الذين آمَنوا وعلى رَبِهِم يَتوَكَّلون﴾. [٦]

ويجدر هنا ورود امثلة على ما تراه بصيرة المؤمن من حقائق وان كانت عينه المجردة لا ترى اكثر من باقي اهل النظر فهو يرى اذن بنور الله تعالى.

---

(٣) النساء/ ١٠.

(٤) البخاري عن ابي هريرة ومسلم عن جابر نحوه.

(٥) الروم/ ٧.

(٦) النحل/ ٩٩.

- أليس الذي ينقل النميمة بين الاحباب يؤدي رسالةً للشيطان؟ فالمؤمن الصادق يراه رسولا لأبليس.
- اليس الــذي زينت له الحيــاة الـدنيـا ولا يدع فرصـة للنيـل من مؤمن بالسّخـريـة إلاّ وسخِـر منـه، مشمولاً بقوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَذين كَفَروا الحياةُ الدُّنيا وَيَسْخَرون من الذين آمنوا**﴾؟[7] فالمؤمن الصادق يراه كافرا.
- اليس الـذي يسعى لجمـع المـال على حسـاب فروضه وعلى حساب تقـربّـه من الله تعـالى، وليس له حاجـة الى المال، اشبه بالذئب الذي يقتـل اكثـر من شاة ليأكل من كل واحدة منها لقيمات لا اكثر، فالحقيقة التي تراه بهـا البصيـرة هي انـه ذئب. قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم: «حُشِـر الممـزّقُ لأعـراضِ النـاسِ في صورةِ كلبٍ ضارٍ والشّـرِهُ الى امـوالهم ذئبـاً عادِيـاً والمتكبِّـرُ عليهم في صورةِ نمرٍ وطالِبُ الرياسةِ في صورةِ اسد»[8]
- اليس الـذي يطيـع الشيطـان في معصية الله تعالى بالكبائر وبلا توبة او ندم ومـع اصـرار على ذلك، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «شرعوا لهم من الدينِ ماليس فيه فأطاعوهم فتلك عبادتهم»[9] قد دخل في قوله تعالى ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يا بَني آدم ان لا تَعْبدوا الشَّيْطان، إنَّه لكم عَدَوٌ مُبين، وان اعبدوني هذا صِراطٌ مستقيم**﴾[10] الا تراه البصيرة عبدا لأبليس؟

---

(٧) البقرة/ ٢١٢.

(٨) رواه الثعلبي في التفسير عن البراء.

(٩) الترمذي عن عدي بن حاتم.

(١٠) يٓس/ ٦٠و٦١.

- اليس الشخص الذي لا تتحرك فيه الغيرة على من في ولايته من النساء كالميت الـذي لا تتحـركُ فيـه الحيـاة؟ قال تعـالى : ﴿**أوَ مَنْ كانَ مَيْتـاً فَأَحْيَيْنـاهُ وجَعَلْنـا لهُ نوراً يمشي بِهِ في النـاس**﴾[11] فالبصيـرة الصـافيـة تصلي عيـه صلاة الجنـازة (مجـازا) وتتـرحم على غيرةٍ فَقَدَهَا كانت قد جعلته اهلا للجنة وفي الحديث الشريف «الجنة حرام على الديوث»[12].
- اليس الـذي يتـواصى بالبخـل كالشيطـان يَعِدُ الانسانَ الفقر أي انه اذا رأى الانســان يهم بالنفقـة يهـدده بأنـه سيفتقـر. فالمؤمن يرى الـذين يتواصون بالبخل شياطين من شياطين الانس.
- أليس الذي يأمر غيره بالفحشاء شيطاناً؟ هكذا حقيقته.
- يرى المؤمن اولئـك الـذين قد أهمّتهم بطونهم، بحيث اتخمها النّهم، سُرّاقاً يقتطعون من افواه الجائعين فما اتخم غني الا بما جاع به فقير.
- يرى المؤمن اولئـك الكهـول، الـذين يستمـرون على اعمـال الصبا، صبيانا وان تقدم بهم العمر.
- يرى الذي يطعن الغافلين بمكيدة مؤلمة: عقربا.
- يرى الذي يفاجىء اخاه او جيرانه بالاذى: كلبا عقورا.
- يرى التي تخون شرفها: فأرة (من اسماء الفارة: الفويسقة).
- يرى الـذي يلح في الاستجـداء والتسـول بدون حاجـة قد سقـط لحم وجهـه كمـا قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم»[13] وقال أيضاً «يبعث

---

(١١) الانعام /١٢٢.

(١٢) رواه احمـد واللفـظ له. ورواه النسـائي والبـزّار والحاكم بلفظ «ثلاثةٌ حرّم الله تبارك وتعالى عليهم الجنّةَ: مدمن خمرٍ والعائق والديّوث الذي يقر الخُبْثَ في أهله».

(١٣) متفق عليه.

كل عبد على ما مات عليه» .[١٤]

- يرى نفسه ، اذا ظن انه خير من اولئك ، فرعون وقارون لأنهما استعليا على الناس برؤية النفس . ولأنه لا يعلم بماذا سيختم له . كما لا يراهم افضل منه لأن الذي يزكي الانفس هو الله تعالى .
- يرى الذي يساعد الاخرين بعلمه ومعرفته وما يقوى عليه ، من غير المال ، متصدقا كالذي يتصدق على الفقراء بالمال «تبسمك في وجه اخيك صدقه» .[١٥]
- يرى المجتمع مجموعة ممن خلقهم الله تعالى واختارهم لهذا الزمان وولى عليهم من يشاء حسب تقدير حكيم فلا يعترض على حكم الله ولكن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب ما اوتي من سلطة او تخويل بلا تجاوز لما حددته الشريعة ولا ضغينة على احد ولا يتمنى الانتقام من احد ، بل يوادد من وآدّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يوآدّ من حاددهما .
- يرى التقدير الرباني للامور محاطاً بالرحمة ومن وراء ذلك رب على اسمى ما يكون في قلب عبد صادق . وذلك هو حسن الظن بالله تعالى وهو اول المعرفة الجليلة بالجليل .

وهذا ما يوضحه الباب التالي بعونه تعالى .

* * *

(١٤) مسلم / عن جابر.

(١٥) البخاري في الادب والترمذي وابن حِبّان عن ابي ذرّ.

الباب الثاني عشر
حُسْنُ الظنِّ بالله تعالى

تكشف لنا القصص القرآنية احسن المعاني ، ولا عجب فهي كما قال عنها منزِلُها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾ .[1] وكيف لا تكون كذلك وهي تدلنا على بديع السماوات والارض في صنعه البديع وتدلنا على حسن مقاصده الجليلة من ظاهر الامور الجارية على البشر. فقد علّم تعالى النبي الكريم موسى عليه السلام وعلمنا من خلال ذلك مدى رحمته . فقد رافق سيدنا موسى (ع) عبدا اتاه الله تعالى رحمة وعلمه من لدنْه علما فإذا بالعبد الصالح يخرق سفينة ركبا فيها ثم يقتل بعد ذلك غلاما ثم يبني بعد ذلك جدارا في قرية لم يرحب اهلها بهما . فلم يسكت عن ذلك سيدنا موسى في كل مرة وهو ينظر الى ظاهر العمل نظرةَ الشريعة التي لا تقبل هذه الافعال فقال سيدنا موسى (عليه السلام) عن خرق السفينة وقتل الغلام رأى الشريعة في انكارهما . وعن بناء الجدار بأنه كان بالامكان أخذ الاجرة عن بنائه . ولكن العبد الصالح نبأه بتاويل ذلك بأن السفينة كانت ستؤخذ غصْباً من قِبل ملك لولا عيبها وقد خرقها لأنه أراد ان يعيبها فلا يقربها الملك لأنها كانت لمساكين يعملون في البحر . والغلام كان سيرهق ابويه الصالحين طغيانا وكفرا . والجدار كان لغلامين ابيهما من الصالحين فأكرمهما الله تعالى بحفظ كنزٍ لهما تحت الجدار حتى يبلغا أشُدَّهُما .[2] وهذا من علم الحقيقة التي أراد الله تعالى ان يظهرها في ثلاث حوادث وما اكثر ماتتكرر في حياتنا اليومية . ومن هذه الحوادث تبرز

---

(١) يوسف/ ٣.

(٢) انظر سورة الكهف وتفسيرها في تفسير ابن كثير.

الـرحمـة الـربـانيـة فعلى المؤمن ان يتذكر عندما يشتد عليه امر ظاهر بان هناك رحمة تكمن في حقيقته. فالمؤمن اذن أسلم أمره لله تعالى من قبيل حسن ظنه به تعالى وقد قال تعالى في حديث قدسي: «أنَا عند حُسنِ ظنِّ عبدي بي». [٣] وهذا الظن الحسن يؤدي بالمؤمن الى صلاح البال فلا يحتاج الى استجلاء الغيب خوفا من المستقبل لأن الذي بيده ملكوت كل شيء ويعلم الغيب قد تولاه قويا كريما.

ومن العبر الواردة في القرآن الكريم خبران من اخبار الانبياء سلام الله عليهم، فقد فهم سيدنا داود عليه السلام ان الله تعالى يريده ان يتفرغ للعبادة ويترك الحكم لأبنه سيدنا سليمان (عليه السلام) اذ فَهّم الله تعالى سيدنا سليمان كيف يحكم في قضية غنم قوم نفشت في زرع ليس لهم[٤] فمن حسن ظن سيدنا داود بمحبة الله تعالى له اعتبرها أشارة الى ان الله تعالى قادر على ان يهيء سواه يحكم بين الناس وانه تعالى يحب له العبادة والتعبد اكثر مما يحب له الجلوس للحكم بين الناس. وفي هذا اشارة لكل مؤمن بالرضى عندما لا يُطلب منه عمل اويؤمر بترك عمله تحت ظروف فوق ارادته. وقد فهم سيدنا يوسف (عليه السلام) أن السجن أحب اليه مما يدعى اليه من جهالة فلما اخرجه الله تعالى اعتبر ذلك إحساناً ربانيا

﴿وقد اَحْسَنَ بي إذْ اخرجَني مِن السِّجْنِ وجاءَ بِكُمْ مِنْ البَدوِ مِنْ بعدِ أَن نَزَغَ الشيطانُ بيني وبَين اِخْوَتي اِنّ ربِّي لطيفٌ لِمَا يشاءُ انه هو الحكيمُ العَلِيْمُ﴾. [٥]

فما مقدار حسن ظن المؤمن بالله تعالى؟ هذا ما يتباين فيه المؤمنون

---

(٣) رواه الشيخان واحمد.

(٤) الانبياء /٧٨-٨٢ وانظر ايضاً تفسيرها في تفسير ابن كثير.

(٥) يوسف/١٠٠.

ويكون تباينهم على قدر علم كل منهم به تعالى فهناك من تمنع عنه الدنيا ويذكر الحديث الشريف «ان الله ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه»[٦] فينشرح لذلك صدره ويعلم ان الله تعالى قد اختار له ذلك رحمةً به واعلاء لمنزلته فمن عرفه اكثر فقد هدى الى حسن الظن اكثر. كما ان من اقتفى اثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حسن الظن بالله تعالى فقد نجا من القلق وهدى الى صلاح البال فلا يتذمر ولا يحتار. وهكذا شأن المقتدى بالصالحين ينال من السعادة ما ليس له علمه بفضل الاقتداء أي يصل الى ما وصل اليه اهل العلم بدلالتهم ولو توكل على علمه لما وصل.

ومن دلائل وصول المؤمنين الى غاية حسن الظن بالله تعالى هو رجاء الله تعالى دعاءً والتماساً ان ينالوا إرادته تعالى فيهم ولسان حالهم يقول: «اللهم إعطنا ما تريد» وهذا طلب التوفيق لأنه لا يكون إلّا ما يريد الله تعالى أي اذا اتفق طلب العبد مع أرادة الله تعالى فقد حصل التوفيق، **﴿وما تَشاؤون إلّا ان يشاءَ الله ربُّ العالمين﴾**.[٧]

واقدار علم المؤمنين بالله تعالى تتفاوت وتتباين كما سبق. ولهذا يتحرى المؤمن قواعدَ وأُسساً ليتعرف على صفاته الحسنى جل جلاله. وأول معرفة لصفاته تعالى بعد توحيده هو معرفة جوانب أساسية من رحمته اذ ورد اسمه الرحمٰن في البسملة الشريفة بعد ذكر اسمه المطلق بالالوهية (لفظ الجلالة: الله) فقد استوى على العرش بصفة الرحمن.

ويعرض الباب التالي بعونه تعالى جوانب أساسية من رحمته تعالى.

* * *

---

(٦) رواه احمد في مسنده عن محمود بن لبيد، والحاكم في مستدركه عن ابي سعيد.

(٧) التكوير/ ٢٩.

البـــاب الثالث عشـــــر
جوانب أساسية من رحمته تعالـــــى

يجلس ملك من ملوك الـدنيـا على عرشـه رمزا لمباشرته تصريف امور الدولة والرعية. فاذا اتصف ملك من الملوك بقلب رحيم وحكمة وكرم في موضعه وعدل لا يحيد وجرأة لا تقهر قلنا ان هذا الملك استوى على عرشِه بتلكم الصفات فلا تتوقع منه الرعية ظلماً او طغيانا يرهقهم ويجعل بعضهم يترك مملكته هربا الى عدالة ورحمة. كما لا تتوقع الرعية ظلما من عماله الذين يستعملهم على امور الناس.

الا ان هذا الملك قد يتصـرف مع فئـة ضالـة من شعبـه بحزم من اجل المجمـوع ومن اجـل اصـلاحهم فاذا بالعقول القاصرة عـن معرفة نواياه او القيـاس على اسلـوبه العام تتهمه بالقسوة ولكن بعدما تظهر نتائج اجراءاته الحازمة يظهر لهم مدى حكمته فيثقون بثباته على الرحمة.

والمؤمن الذي اسلم امره لله تعالى، موقنا بما ارتضاه تعالى له من دين قيم وموقنا بمعنى قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾، [1] سيبقى في شعـــوره بأنـــه في كنف رحمـــة الله تعـالى فلا يسـاوره يأس يتصف به الضالون الكافرون من رحمته تعالى فهذا سوء ظن به تعالى فالكافر الضال يعيش في ظلمة اكتسبها من قلب معتم لم يدخله نور الله تعالى، فالنور هو نور الله تعالى وقلوب المؤمنين عروش الرحمن حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه تعالى «ما وسعني ارضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الليّن الوادع». [2]

---

(١) طه/ ٥.

(٢) رواه الطبراني بلفظ نحوه.

ومن علامات ظلمات القلب ان ينسى العبد آيات ربه اذا أتته وهكذا يتصف بالعمى وتكتب له المعيشة الضنك ﴿وَمَن أعْرَضَ عن ذِكْري فإن له معيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يومَ القِيامةِ اعمىٰ * قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمىٰ وقد كُنْتُ بَصيرا؟ قالَ كذٰلك أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيْتَها وكذلك اليَوْمَ تُنسىٰ * وكذلك نَجْزي مَنْ أَسْرَفَ ولَم يُؤْمِن بآياتِ رَبه ولَعَذاب الآخِرةِ اشَدُّ وأبْقىٰ﴾ .(٣) امـا مجيء الآيـات للانسـان فهي الحقـائق التي تشيـر الى الحق والى الباطل فأذا ايقن بما هو حق وصدّ عنه فقد نسي آيات الله تعالى واعرض عن ذكره باتباع الهوى المخالف نفورا او استكبارا واسرافاً على نفسه.

والعلم بحدّ ذاته دليل من ادلة الرحمة الربانية لقوله تعالى ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِما يَجْمَعون﴾ .(٤) فاذا انشغل من أتته فرصة العلم من رب لا يبخل بخير على عبده، انشغل عن علم الله تعالى برجزٍ من خمر وميسر أو كسبٍ حرام او مكائد من اجل المناصب وما الى ذلكً فان الملائكة الذين عناهم الله تعالى بقوله ﴿تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإِذنِ رَبِّهِم مِنْ كُلِّ أمْــر * سَلامٌ﴾(٥) عنــدمـا تنـزل بالـرحمـة علمـاً وتقـوى فانهم يتحـاشـون المشغـولين بتلك المشـاغـل فالمشغول لا يشغل ويلتمسون امـاكن اقـامـة الصـلاة والتهجّد بالقرآن فأهل هذا العمل هم اهلٌ لتلقي الـرحمـات على اقـدار احـوالهم ومـا شاء لهم الله تعالى من زيادة ورفعة واضطراد التقدم في دين متين.

---

(٣) طه/ ٢٤،

(٤) الزخرف/ ٣٢.

(٥) القَدْر/ ٥ و٦.

كمـــا ان تصـرف المؤمن بالـرحمـة مع المؤمنين دليـل على التخلق بأخـلاقـه تعـالى ودليـل على التـوفيق اذ يرجى ان تثمر الرحمة الخالصة لوجهه الكريم نتائجها المرجوة وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم «ان الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على الخَرَق». [٦] اما الشدة على الكافرين فهي من بواطن الرحمة اذ قد تكون سببا لأيمانهم. [٧]

ومـن دلائـــل قرب رحمـــة الله تعـــالى من المؤمن هو شعـــور المؤمن بالطمأنينة. فانّه ان أحسن فقد قربت منه رحمة الله التي جعلها تعالى قريبا من المحسنين مع اتساعها لكل شيء.

والتصـريف الـربـاني، المتسم بالـرحمة في كل امرٍ، مقترنٌ بعلمه تعالى بكـل شيء فقـد وسـع كلّ شيءٍ رحمـةً وعلمـاً. ولهذا يتباين كرمه وتوفيقه وهداه حسب علمه بتباين الناس. واذا وُفِّق العبد لمعرفة مدى اقتران الكرم الرباني بالرحمة ايقن ان الله تعالى لا يعطي ولا يمنع اِلاّ رحمةً مِنه. وهذا ما سيرد عنه شيء من الايضاح في الباب التالي بعونه تعالى.

* * *

---

(٦) رواه الطبراني في الكبير عن جرير باسناد ضعيف ومثله حديث «ان الله رفيق يحب الرفق» رواه مسلم عن عائشة.

(٧) راجع الهداية في الفقه الحنفي.

الباب الرابع عشر
شيء من كرم الله تعالى شأنه.

الكرم والرحمة منه تعالى مقترنان يُخَيِّل لأوّل وهلةٍ لمن يتعرف بالعلم عنهما انهما مترادفان فالرحمة من الكرم والكرم من الرحمة فهو تعالى الواحد في كل صفاته الحسنى. اما الرحمة التي وسعت كل شيء فقد تحجب الكرم. فإننا في حياتنا العادية نستغرب اذا علمنا ان ثَريّاً موسراً متصفاً بالكرم والرأفة وصِلة الرحم قد ردّ اخاه الشقيق عندما طلب منه مالا يتكسب به لعياله واكتفى الموسر بالنفقة على اخيه وعيال اخيه بما تقوم به معيشتهم. ولكن اذا علمنا بان الشقيق المفتقر قد سبق له واساء التصرف بمال وافر وخسره بحمق وسوء تدبير فأُصيب بخيبة من الفشل كادت ترهقه وتودي بعافيته، زال استغرابنا من تصرف اخيه الموسر بل ايقنّا ان تصرفه كان عن حكمة ورحمة. فالكرم الرباني حُجِب كذلك بأولوية الرحمة قال تعالى في سورة الشورى ﴿**ولو بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغوا في الارض، ولكنْ يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يَشاء انه بِعِبادِهِ خبير بصير. وهو الذي يُنَزِّلُ الغَيثَ من بعدِ ما قَنطوا ويَنْشُرُ رَحمتَهُ وهو الولي الحميد**﴾.[1]

الدّين اثمن جوهرة تعطىٰ للانسان. وتقتضي الحكمة من اهداء الجواهر بأن تعطىٰ لمن يكون أهلاً لها. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولكن لا يعطي الايمان الّا لمن يحب».[2] فيكون كرم الله تعالى على قدر حال العبد. وتتعدد صور الكرم على حسب نضوج العبد واهليته. فالله تعالى جواد يعطي قبل

---

(١) الشورى/ ٢٧ و٢٨.

(٢) الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود وقد تقدم في الباب الخامس.

ان يُسأل وكريم يعطي عندما يُسأل ولكن المهم ان كرم الله تعالى هو الذي يُقَدِّر مدى تعلق العبد بربه شاكرا ذاكرا اوجاحدا كافرا. فالمذكور عند سؤال العبد هو الله تعالى رباً كريماً والذاكر هو العبدُ المفتقر المحتاج. اما المذكور عند الكرم الرباني فهو العبد والذاكر هو الذي لا يَضِلُّ ولا ينسى وهو الله تعالى. ﴿فاذْكُروني أَذْكُرْكُم واشْكُروا لي ولا تَكْفُرون﴾[٣] فدليل شكر العبد لربه هو اتجاه العبد بنعمة الله تعالى لخدمته اي يجعلُ العبادة مدارَ حياته؛فان كانت النعمة علما اتجهت لخدمته تعالى نفعا لعباده واعلاء لكلمته تعالى ؛ وان كانت مالا اتجه العبد به الى الاحسان الى الناس اعلاءً لكلمة الله تعالى. اما اذا اتجه العلم لدنيا يصيبها واتجه المال الى النزوات الحرام فقد جحد العبد وكفر مالم يتب الى الله تعالى وتخلُص نيته لأعلاء كلمة الله عزّ وجلّ. وفي حال النفع فان المنفعة تدخر للعبد برا يوم القيامة فمن احب نيل البر فلينفق مما يحب ان يراه قد حفظ وأُعِدّ له «فلأنفسهم يمهدون»[٤] ﴿لَنْ تَنالوا البِرَ حَتى تُنْفِقوا مِما تُحِبون﴾.[٥]

فالحالُ التي يكون عليها العبد قبل الكرم وعلم الله تعالى بالغيب بما سيكون عليه العبد بعد الكرم ورحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وحكمته التي تكشف حقيقة الامور بلا لبس كل ذلك يشير الى ان الكرم الرباني ليس عبثاً بل تمييزا لمن يكون الكرم حجة لهم عمن يكون الكرم حجة عليهم ﴿لِيَهْلَكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيى عن بيّنةٍ وان الله لَسَميعٌ عليم﴾[٦] فينال الصادق خير الكرم وهو التقوى فيتقي الفتنة وينجو من تغيّر الحال نعمةً من الله كذلك يجزي من شكر.

---

(٣) البقرة/ ١٥٢.

(٤) الروم/ ٤٤.

(٥) آل عمران/ ٩٢.

(٦) الانفال/ ٤٢.

اما تغيّر الحال الى أسوأ فهو نذير بتغيّر النعمة ﴿ذلِكَ بان الله لَمْ يَكُن مُغَيِّراً نعمةً انْعَمَها على قَوْمٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم﴾[٧] وهذا من قبيل حجب الكرم بالرحمة فان زوال النعمة كان بسبب ثقلها على العبد اذا جرّت اليه الاوزار واخذ يسير نحو الاسوأ.

ومن كرم الله تعالى ان اذاق أبانا آدم عليه السلام نعمةً افضل من نعمته التي اهبط منها وتلك هي التوبة. وهذا يدلنا على انه تعالى فتح باب العفو لتوبة الذي تتغيّر حالهم بالنعمة فيجدون بعدها من خزائن رحمته ما يبدلها بافضل منها اذا صدق التائب. اما ان لم يصدق واصر على الظلم فقد استحب العمى فلا يهتدي الاّ الى طريق جهنم وقد قامت الحجة عليه يوم يسأل عن النعم التي لم يرعَهَا حقها وينادىٰ مع امثاله ﴿لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ من مَقْتِكُم أنفُسَكم إذْ تُدعَوْن الى الايمان فَتَكْفُرون﴾.[٨] وقد قال الفقهاء «الاصرار على معصية الرسول كفر».[٩] فالهدىٰ لم يمنع عن التائبين بل عن المصرّين على أستحباب العمى. وهذا ما سيذكر في الباب التالي بعونه تعالى.

* * *

(٧) الانفال/ ٥٣.

(٨) المؤمن/ ١٠.

(٩) في موعظة للشيخ أمجد الزهاوي المدرس الاسبق للفقه الحنفي في كلية الشريعة ببغداد.

الباب الخامس عشر
الهدى لدين الحق

يسأل احيانا قاض مجرما ثبتت عليه الجريمة (ألم يؤنبك ضميرك قبل ان ترتكب ما يجر العذاب على اخيك الانسان؟)

فيجيب المجرم: بلى، ولكن غلبت عليه شِقوتُه، اي انه سمع صوت ضميره ولم ينعطف نحوه اذ لو فعل ذلك لما اقترف ما اقترف وعندئذ كان سيذوق حالا من الراحة والسرور تجعله في افقٍ من المعرفة أوسع، فيذوق من السعادة ما يحرص عليه فلا يرتكب ما تسوِّله له نفسه بعدها أي يهتدي ويبقى على صراط مستقيم. قال تعالى ﴿إنّ عَلَيْنا لَلْهُدىٰ﴾[1] وهذا هو الضمير الذي يتحرك للاشارة الى الهدى فأذا أُغْفِلَ وأُهمل ضعف واذا اجيب فقد استمد العون للتقوى والذكرى ﴿والذينَ اهْتَدوا زادَهُم هُدى وآتاهم تَقْواهم﴾[2] فان لم يستجب عبدٌ لهذا النداء فقد اقام الحجة على نفسه امام الذي لم يخْفَ عليه نداء الضمير ولم يخف عليه جواب صاحبه وكفى به حسيبا، لا يخفى عليه ذنب. إنّ الذي وسعت قدرته هداية الناس جميعا وجَعْلَهم امة واحدة قد اوضح سبب حجب هذه القدرة اذ جعل ما على الارض زينة لها ليبلوهم ايهم احسن عملا، وبذلك يميز الصالح منهم اللائق بجواره في جنة خلد عن الخبيث الذي يركمه على بعضه في نار جهنم. وفتح باب العفو سبحانه بموجبات رحمته للتائبين والأوابين فـ﴿ربُكُم أَعْلَمُ بِما في نفوسِكُم إنْ تكونوا صالِحينَ فإنّه كان للأوابينَ

---

(١) الليل/ ١٢.

(٢) محمد/ ١٧.

غفــورا﴾ . [٣] ولا عجب في تسليــط الشيــاطين على من عشي عن ذكـر الرحمن ليكونوا لهم قرناء. ولبئس القرين.

فالأهتـداء فيـه الحرص على ذوقٍ لحال سعيدة بعثت السرور بالامتناع عن المعصيـة فالحـرص يؤدي الى الأستقامة والى الطمأنينة اختصاصا من الله تعالى الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين.

أمـا الـزيـغ عن اتبـاع الأوامـر الربانية اي عن طاعة الرسول **﴿مَنْ يُطِعِ الـرَّسـول فقَـدْ اطـاعَ الله﴾**[٤] فان العبـد العـاقـل البالِغ المسلم لا يرتكب معصيـة يعلمهـا عن اصـرار إلّا وقـد اعـدت له حجـة بالغة لا تقف أزاءها المعـاذيـر الواهية اوما يسمى بالتبريرات التي سوّغ لنفسه بها قبولها. وهذا مكـر العـاصي بنفسه **﴿ولا يَحيق المَكْرُ السَّيءُ الّا بأهْلِهِ﴾** . [٥] اما موضوع الحجة التي تقام على المعصية فان النفس التي ارتضت الفجور هي اول من يقتنـع بالحجـة او البينة التي تدينها، في ذلك، يوم القيامة. فالمعصية هي المخالفة عن امر الله تعالى وامر الرسول **﴿مَنْ يُطِعْ الرَسول فقَدْ أَطاعَ الله﴾**[٦] وهي للمؤمن مدعاة الى واحدٍ من مصيرين: اما الفتنة اي رجوعه عن الهـدى وامـا العذاب الأليم كعقوبة مع بقائه على الايمان. قال تعالى **﴿فَلْيَحْذَر الذين يُخالِفون عن أَمْرِهِ ان تُصيبَهم فِتْنَةٌ او يُصيبَهم عذابٌ أليم﴾** . [٧] وقـال تعـالى: **﴿ولَنُـذيقَنَّهُم من العَـذاب الادنى دونَ العـذابِ**

---

(٣) الاسراء/ ٢٥.

(٤) النساء/ ٨٠.

(٥) فاطر/ [redacted]. ٤٣

(٦) النساء/ ٨٠.

(٧) النور/ ٦٣

الاكْبَر لَعَلَّهم يَرْجِعون﴾[٨] وقال ﴿من يَعْمَلْ سوءً يُجْزَ بِهِ﴾[٩] وفي التفاسير ان المقصود بذلك جزاء الدنيا للمؤمنين بالعقوبات ممن تكون العقوبات الدنيوية كفارةً لهم ليلقوُا اللهَ تعالى بلا ذنب ﴿فَفِرّوا الى الله﴾ .[١٠]

ويكون الانسان حسيباً على نفسه يوم القيامة حيث قال تعالى ﴿ونُخْرِجُ له يومَ القِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنشورا . أقرأ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِك اليومَ عليكَ حَسيبا﴾ .[١١]

فالهدى اذن هدية جليلة من الله تعالى ولا يترك من يتلقاها منه تعالى بدون تمييزه هل يشكر عليها ام يجحد حقها والله تعالى اعلم بالنتيجة ولكن ليقيم الحجة على الزيغ وليثبت للزائغين انما ازيغت قلوبهم بأمره تعالى من جراء زيغهم وارتضائهم بذلك من تبريرات النفس الأمارة بالسوء أي المعاذير رغم عفوه تعالى واعطائه الفرص التامة ولكن ﴿ويَمْكُرون وَيَمْكُرُ الله﴾[١٢] أي لا يبادر الله تعالى بمكره بل يكون بِمكرِهِ بالمرصاد لمكرهم . ومكرهم ظلم والظلم يبعد الهدى مالم تحصل التوبة النصوح . ومكره عدل عليهم ورحمة لهم ولغيرهم . وهذا ما يليق بجنابه العظيم العزيز الحكيم .

اما الاختبارات الربانية ليبلو الناس ايّهم احسن عملا ، فتتضّح من العقبات التي تكون بين العبد والجنة فان كان اهلا لها اقتحمها والاّ فلا . وهذا ما يتحدث عنه الباب التالي بإذنه تعالى .

* * *

(٨) السجدة/ ٢١ .

(٩) النساء/ ١٤١ .

(١٠) الذاريات/ ٥٠ .

(١١) الاسراء/ ١٣ و١٤ .

(١٢) الانفال/ ٣٠ .

الباب السادس عشر
الأبتلاء الرباني بالعقبات

ينضج العبد ليكون اهلا لمقعد صدق عند مليك مقتدر. والله تعالى أعلم بما يعد للعبد المؤمن من اختبارات تقيم الحجة له وما يعدّ لغير المؤمنين ليقيم الحجة عليهم وما يعدّ لأهل المعاصي من المؤمنين ليعاقبهم ويجزيهم في الدنيا. وكل هذه الاختبارات تحصل بتقدير من حكيم تتجلى فيه صفاته الحسنى تعالى.فتكون عقبات ظاهرة وعقبات خفية تظهر عندما يشاء الله تعالى.ولا علم للعبد بمواعيدها واين تكمن وكيف يتهيأ لها.وهذا ما يحمل العبد الصادق على الحذر المستمر في عدم الخروج عن خط الشريعة،اي خط الاتكال على المنهج الرباني،ليكون متهيئاً لكل مفاجأة بعون رباني وارشاد ودلالة.فالله تعالى يعين على طاعته ولا يعين على معصيته.وعندما يقول المؤمن في سورة الفاتحة:﴿**أيَّاكَ نَعْبُدُ وأيَّاكَ نَسْتَعين**﴾ يقول تعالى: ﴿**هذه بيني وبين عبدي**﴾.[1] وهذا الاتباع هو التنفيذ الصادق لميثاق الغبد المؤمن مع الله تعالى كما جاء في سورة المائدة ﴿**واذْكُروا نِعْمَة الله عليكُم وميثاقَهُ الذي واثَقَكُم به اذْ قُلْتُم سَمِعْنا واَطَعْنا. واتَقوا الله واعْلَموا ان الله عَليمٌ بِذات الصدور**﴾[2]. فالسمع قد حصل من تبليغ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم اما الطاعة فهي الاتباع لهذا المسموع بما فيه من اوامرَ ونواهٍ. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما امرتكم فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا».[3] وفي

---

(١) من حديث لمسلم في تفسر سورة الفاتحة عن ابي هريرة.

(٢) المائدة/ ٧.

(٣) رواه الشيخان بلفظ «ما امرتكم فاتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

هذا يكـون المؤمن قد صدق في الميثـاق ودخـل في حال من التبصـر بكل خطوة يمدها في حياته فلا يغفل اي لا يجعل غفلته مدخلاً لشيطان او كافر قال تعالى في تحقيره لأبليس ﴿**انَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ على الذين آمَنوا وعلى رَبِّهِم يَتَـوكّلون**﴾ .[٤] كمـا قال تعـالى في سورة النسـاء : ﴿**ولَنْ يَجعلَ الله للكافِرينَ على المُؤْمنين سَبيلا**﴾ .[٥]

وهـذه هي نتـائج التسلّح بالعقيـدة الصـادقـة والاتبـاع الـواعي فهي المكسب الصحيـح وهـذه هي التبصرة التي تكون من اهم أسباب اقتحام العبـد للعقبـات نحـو الله تعـالى . فالعقبات اما عقبات في المال يقتحمها العبـد المؤمن بفـك الرقاب وفي اطعام الايتام والمساكين ، واما سير سليم في حياته بالتواصي بالصبر والتواصي بالرحمة . واول من يوصيهم هو نفسه وفي كل هذا السياق يتحلى بالايمان الذي لا زيغ فيه .

فالتبصـرة والايمـان والالتـزام بالشـريعـة اسلحـة متكاتفة يكلّلها عون رباني باللطف والتوفيق ، في الظاهر والخفاء ، لاقتحام العقبات التي قدّرها الحكيم الخبير لكل عبد على قدر طاقته التي آتاهُ اياها ﴿**لا يُكَلِفُ الله نَفْساً الا ما اتـاهـا**﴾[٦] فبـالتبصـرة يعلم المؤمن انمـا هو في امتحـان ويرجى له النجـاح فلا يبـالي بما يراه في الظاهر خسارةً بل يراه على حقيقته ربحاً في يوم لا ينفع مال ولا بنون . وبالايمان يعلم انما يجاهد في سبيل الله تعالى فيجاهد كل ما يعيقه عن الوصول اليه فهو اذن في عباده فلا يبالي إن اقتحم أسبـاب الهـلاك فهي أسبـاب النجاة من عذاب اليم . وبالالتزام بالشريعة لاينقصـه تصـرف سليم لأن امور الشرع واضحة لمن اعانه الله تعالى على

---

(٤) النحل/ ٩٩.

(٥) النساء/ ١٤١ .

(٦) الطلاق/ ٧.

فقههـــا فلا حيـرة معهـا فيتصـرف باتبـاع الافضـل عنـد الله تعـالى ويتقى الشبهات حتى ينجو. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه». [٧]

من العِبَـرِ التي امتُحِن بهـا المؤمنـون الذين كانوا مع الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسلم فخلفـوه من بعـده ما ورد في القـرآن الكـريم عن امتحان الانبيـاء: ﴿**واذ اخـذ الله ميثـاق النبيين لَمَـا آتَيْتكم من كتـابٍ وحِكْمـةٍ ثم جاءكُم رسولٌ مصدقٌ لما مَعكم لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ قال ءأقرَرْتُم وأَخذْتُم على ذلكم إصري، قالوا اقْرَرْنا. قال فَاشْهَدوا وانا مَعَكُم من الشـاهـدين**﴾، [٨] واذا بهم مجتمعـون في بيت المقـدس ليلة الاسـراء والمعراج يأتيهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيؤمنون به وينصرونه اذ تقـدمهم في الصـلاة إمـاماً[٩] وصّـدورهم منشرحة لكمال الدين في هذه الـرسـالـة التي حملها صلى الله عليه وآله وسلم مصدقا لمامعهم من كتاب وحكمـة ومهيمنـا عليـه ثم جاءت ساعـة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليلتحق بالـرفيق الاعلى واذا بالمؤمنين الصـادقين لا يهمهم من يرفـع رايـة الاسلام بقدر ما يهمهم ان تكون مرفوعة فلا يهم الساعد الذي ترتفع فوقه لمن يكـون بل المهم ان تكـون الـراية حيث ينبغي لها. فلم يملكوا الا ان تبايعوا على حملها بصدق وتناصح وتعاون. [١٠]

---

(٧) من حديث اوله «الحـلال بين والحـرام بيّن وبينهمـا امور مشتبهة لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات.. الحديث) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير.

(٨) آل عمران/ ٨١.

(٩) تفسير ابن كثير في فواتح سورة الاسراء جـ/ ٢ ص٢.

(١٠) الاشاعة لاشراط الساعة/ للبرزنجي.

ومن دلائل حصول العون الرباني للعبد في اقتحام العقبات انه يتحلى بالصفات التالية :

* الثقة بقدرة الله تعالى على نجاة عباده اوقبول شهادتهم الى مصير حميد ﴿قُلْ هل تَرَبَّصونَ بِنا الاّ إحدىٰ الحُسْنَيَيْن﴾ .[11]
* صبر يُجمِّلُه حسنُ الظن بالله تعالى .
* التبصر بالتوحيد اي استمداد العون من الله تعالى وحده، ومن كان يظن أن غير الله ينفع اويضر فقد قال تعالى فيهم ﴿قُلْ أَتَعْبُدون مِن دون الله ما لايَمْلِكُ لَكم ضَراً ولا نَفعاً والله هو السميع العليم﴾ .[12]
* الاتباع وفق اوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونواهيه فاذا خالف ذلك هوى النفس فلا يتكل عليها طرفة عين بل يبقى متكلا على الله تعالى .
* الشعور بقرب الله تعالى ورقابته وقدرته ورحمته وصفاته الحسنى التي تتجلى للمؤمن في حاله التي يكون عليها . فلكل حال من احوال المؤمن نظرة ربانية كما سيلي بيانه في الباب التالي بعونه تعالى .

لابد ان يحذر من يتحلى بالصفات التالية من الفشل في اقتحام العقبات .

* عدم استحباب العبد للتوبة، اي بالمماطلة فيها . قال صلى الله عليه وآله وسلم «هلك المتعذّرون»[13](اي الذين يقولون سوف نتوب وسوف نصلح بعد زوال عذر كذا وكذا، وهكذا).وقد ورد في الخبر:

---

(١١) التوبة/ ٥٢ .

(١٢) المائدة/ ٧٦ .

(١٣) رواه ابو نعيم في الحلية عن ابي هريرة ورواه الطبراني في الاوسط/ فيض القدير جـ٦/ ٣٥٦ .

«اكثر صراخ اهل النار من التسويف». (١٤)

* اتباع الاماني المخالفة للعبادة الصحيحة والانخداع بزخرف اقوال شياطين الانس والجن غرورا.
* سوء الظن بالله تعالى والغفلة عن هيمنته الشاملة لكافة مجريات الامور ﴿ألا لَهُ الخَلْقُ والأمر﴾(١٥)
* الغفلة عن حضور الله تعالى شهيدا عليهم ومراقبا لهم وناظرا اليهم.

انه يرجى لمن آمن وعمل صالحا ان يتخلص من هذه الاحوال الى حال الثقة بالله تعالى والشعور بأنه معهم اينما كانوا ويكونون. وهذه المعية الجليلة والشهادة المقتدرة والاطلاع بالاحاطة التامة موضوع للباب التالي باذنه تعالى.

* * *

(١٤) اخرجه الغزالي في الاحياء في باب التوبة/ جـ ٤/ ١٢.

(١٥) الاعراف/ ٥٤.

الباب السابع عشر
الله تعالى مع عباده أينما كانوا

لا يغيب شيء عن عالم الغيب وهو معنا اينما كنا. الا ان نظرته تعالى تختلف الى فئة من الناس عن نظرته تعالى الى فئة غيرها بسبب اختلافهما عن بعضهما. ينظر تعالى للمؤمن الصالح بنظرة هي غير نظرته للسيئات او للخبيث ولكنه لا يغيب عنه الخبيث عندما يرفع العمل الصالح فاذا طلب ممن عمل الصالح ان يبحث عن عمله فأنه سيجده في عليين واذا طلب ممن عمل الخبائث ان يبحث عن عمله فلا يجده الا وبالاً قال تعالى في حديث قدسي «إنّما هي اعمالكم أُحصيها عليكم فمن وجد خيرا فليحمدِ اللهَ.ومن لم يجدْ فلا يلومنّ الا نفسَه»[1] وفي القرآن الكريم قال تعالى: **﴿فَمن يعملْ مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرا يَرَهُ﴾**.[2]

وفي سورة آل عمران كشف تعالى محبته فقد قال **﴿... يُحِبُ المُحْسِنين﴾**. **﴿.. يُحِب المُتقين﴾**، **﴿... يُحب الصَابِرين﴾**. كما قال تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم **﴿.. يحب التّوابين ويحب المُتَطَهرين﴾**.[3] فان نظرته تعالى لهؤلاء تختلف عن نظرته لمن هم دونهم كما تختلف نظرته اليهم كمجاهدين عن نظرته اليهم في حياتهم المستقرة كما ينظر الى المجاهدين بنظرات تختلف حسب اقدارهم ومقاديرهم فنظرته تعالى شاكرا تكون مع هؤلاء الذين أحبهم إذ احسنوا

---

(١) رواه مسلم عن ابي ذر من حديث طويل في تحريم الظلم.

(٢) الزلزال/ ٦ الى آخر السورة.

(٣) البقرة/ ٢٢٢

فدخلوا رحمته فهو يشكرهم لذلك من محبته لهم فهو في غنيٍ عنهم ولكنْ يشكرهم اذ عملوا الصالحات لأنفسهم.

ونظرته تعالى تكون نظرة منتقم لمن اغضبه ﴿**فلما آسَفونا انتَقَمْنا منهم**﴾[٤] وانتقامه متعدد الصور ومنها أنه يلقي في قلوبهم الرعب. ونظرته لأهلِ الاصرار على المعصية كفراً هي نظرة مقت ﴿**ان الذين كفروا يُنادَون لَمَقْتُ اللهِ اكبرُ مِن مَقتِكُم أنفسَكُم إذْ تُدْعون الى الايمانِ فتَكفُرونَ**﴾.[٥]

هو تعالى مع المنكسرة قلوبهم لأجله كما جاء في حديث قدسي «انا مع المنكسرة قلوبهم لأجلي»[٦] فما هي نظرته؟ لقد تابوا وانكسرت قلوبهم فهو قابل التوب وغافر الذنب اذا مدّ العبد اليه يدا مد اليه يدين واذا تقرب اليه شبرا تقرب اليه ذراعا،[٧] يجيب دعوة التائب ويُقرّبه ويبدل سيئاته حسنات اذ يكون عفوه مصدر سرورهم.

وهو مع المريض اذا عاده اخوه المؤمن فنظرته تعالى تكون بعين الرضا، فان لم يعده فينظره نظرة عتاب: «**مرض عبدي فلان وعلمتَ به**

---

(٤) الزخرف/ ٥٥.

(٥) المؤمن/ ١٠.

(٦) اخرجه الغزالي في الاحياء بلفظ انا مع المنكسرة قلوبهم، وله تتمة ووجدت حديثاً قدسياً «قال تعالى لموسىٰ عليه السلام ياموسىٰ ائتني بما ليس في خزائني قال يارب انت رب العالمين واي شيء نقصت خزائنك فقال ياموسى اعلم ان خزائني مملوءة كبرياء وعزاً وجلالاً وجبروتاً ولكن ائتني بالذل والانكسار والمسكنة فانا عند المنكسرة قلوبهم من اجلي» رواه صاحب البرهان المؤيد بقوله (روى أن الله تعالى قال).

(٧) روى البخاري ومسلم في صحيحِهما عن ابي هريرة حديثاً قدسياً «من تقرب الي شبراً تقربتُ اليه ذراعاً... الحديث.

ولم تَعُدْهُ ولو عدته وجدتني عنده»[٨] وهكذا مع المؤمن يطعم اخاه الجائع أو ينـال العتـاب، واي عتـاب يتمنى المؤمن معه لو يلقى في النار ولا يشعر بنظرة الله تعالى معاتبا يوم يأمل ان يلقاه راضيا.

ينـصب تعـالى وجهـه للمصلين فلا يمـلّ حتى يملوا كمـا جاء في الحـديث الشـريف «فان الله لن يمل حتى تملوا».[٩] واينما يولّوا وجوههم فثم وجهـه فهـو مقبـلٌ عليهم فكيف تكون نظرتُهُ لمن يُعرِض من العباد عن هذا الاقبال؟ في حديثين قدسيين يخاطب تعالى عبده: «ادعوك وتفرّ مني واذكـرك وتنسـاني»[١٠] «وتعـرض عني وانـا مقبـل عليك».[١١] فلما ابتلى تعـالى المؤمنين مع الـرسـول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بلاء حسنا قال فيهم **﴿كُنتم خيرَ أُمَةٍ أُخْرِجت للناس، تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المُنْكر وتُؤْمِنون بالله﴾**[١٢] بينما لُعن من كفر من بني اسرائيل مَنْ، **﴿كانوا لا يَتَناهَون عن مُنكرٍ فَعَلوه لَبِئْسَ ما كانوا يفعلون﴾**.[١٣]

اذا سأل العبد غير ربه فقد صدّ عن ربه وكذلك اذا استعان بغيره، فما الذي حجب الله تعالى عنهم سوى الهوى الضال؟ فكيف اذا أعانوا ظالماً والظالم في حرب مع الله تعالى أليس قد حاربوا الله تعالى فهل عجب أن يسلط الله تعالى ذلك الظالم على من اعانه قال صلى الله عليه وآله وسلم «من اعـان ظالمـاً سلّطـه الله عليـه».[١٤] وقـال تعالى: **﴿ولا يَحِيقُ المَكْرُ**

---

(٨) مسلم عن ابي هريرة.

(٩) متفق عليه عن عائشة.

(١٠) احمد بن فارس في اماليه، والخليلي عن ابن عمر.

(١١) الرافعي.

(١٢) آل عمران/ ١١٠.

(١٣) المائدة/ ٧٩.

(١٤) ابن عساكر، وصاحب الفردوس عن ابن مسعود.

السيءُ إلّا باهله﴾.[١٥] وهكـذا تتـواصـل نظـراته تعالى حتى يدفع الناس بعضهم ببعض **﴿ولولا دَفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفَسَدتِ الارض﴾**.[١٦]

هل تنتهي معيّـةُ الله تعـالى ومتى بدأت؟ انـه تعالى قدّرلهم في الازل متى يُظهــرهم فخلق وبـرأ النسمـة وصـوّر في الارحـام **﴿هـو الله الخـالق البـارىء المُصـوِّر﴾**[١٧] ويخـرجهم طفـلا ويجعل لهم مودّة ورحمة حتى يبلغوا أشُدّهم ثم قدر لهم آجالهم فيستدعي كُلًّا منهم عند أجله الى كنف رحمتـه ثم يرسله الى حيث عَمَلُهُ. ثم هو العـزيـز الحكيم يغفـر لمن يشاء ويعـذب من يشـاء فلا بدايـة لمعيتـه بل ظهـرت لهم بحدوث ظهورهم ولا تنتهي معيّته فهو الذي بعثهم الى خلود.

زرع لهم فأطعمهم وهيأ أسبــاب الشفـاء في مرضهم وهيأ اليُسـر بعـد العسـر ونـوّرهم بالهـدى واغنـاهم بالعلم وزيّنهم بالحلم واكـرمهم بالتقىٰ وجمّلهم بالعـافية ويدافع عن المؤمنين ويصلي وملائكتُه عليهم ليخرجهم من الظلمـات الى النـور ويعلّمهم مالم يكونوا يعلمون. . دلّهم على قدرته وعــونـه فقـد وهب لهم البصيـرة التي ترى، اذا صفت بالله، أن كل شيء يسبـح بحمـده فمـا أقـدره! . وهـا هي لحظات مع قدرته تعالى في الباب التالي بعونه.

* * *

---

(١٥) فاطر/ ٤٣.

(١٦) البقرة/ ٥١.

(١٧) الحشر/ ٢٤.

الباب الثامن عشر
قدرة الله تعالى شأنه

من المعروف في التاريخ ان ملوك الازمنة القديمة اذا اراد احدهم ان يصلح امر احدى ولاياته البعيدة فإنه يختار لها واحداً من المخلصين له يتحلى بالعلم والحكمة والحزم والكفاءة وبذلك لا يتطلب الأمر من الملك ان يذهب بنفسه لأصلاح الولاية البعيدة بل يمنح الصلاحيات لهذا العامل الكفوء وكأنه أرسل اليهم الاصلاح. فالذي حصل ان الامر قد عولج من كافة الوجوه بعمل واحد أساس فقامت اصلاحات عميمة عليه من تنظيم امور المال والجند والدواوين والرعاية والتعليم وما الى ذلك.

وهكذا تتناول القدرة العليا امرا اساسيا فتعالجه فيشمل العلاج ما تفرع منه كما تعالج اوراق الشجرة من جذرها اوجذعها ولو اردنا ان نحصي ما حصل من جراء امر واحد الا وهو انحراف محور الارض بثلاث وعشرين درجة ونصف الدرجة عن خط دورانها في فلكها حول الشمس لما اسعفتنا الارقام ويكفي ان نقول ان الفصول الاربعة قد حصلت من جراء ذلك لأن تعامد الشمس من اواخر آذار الى اواخر ايلول ينتقل شمال خط الاستواء بالتدريج صعودا الى مدار السرطان ثم عودةً وهذا ما اسماه الله تعالى في القرآن الكريم ﴿المشارق والمغارب﴾[1] ثم يعود التعامد الى خط الاستواء فينتقل جنوبا الى مدار الجدي نزولا وعودة الى الاستواء حتى اواخر آذار فماذا حصل من جراء هذا الانحراف؟ يمكن ان نقول حصلت كل أسباب الحياة في الارض من رياح وسحاب وزرع وامطار فأي تعليل

---

(١) انظر سورة المعارج/ ٤٠.

يمكن أن يعلل به هذا الانحـــراف سوى قدرة العليم الحكيم . قال تعـالى **﴿إنَ في خَلْقِ السمـاوات والارضِ واختِلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْك التي تجـري في البحـرِ بمـا ينفعُ الناس وما انزلَ الله من السماء من ماء فأحيا به الارضَ بعـدَ موتِهـا وبثّ فيهـا من كلِّ دابـةٍ وتصريفِ الرياحِ والسَحابِ المُسَخَّرِ بينَ السماء والارض لآيات لِقومٍ يعقلون﴾**(٢)

كما ان قدرة الله تعالى وحدها تكون التعليل الصحيح لما يحصل في الطفل من تحول الى اخذ الاوكسجين من الهواء الداخل في رئتيه بدلا من اخـذه من دم امـه لحظـات الـولادة التي لا تتجاوز ثانية من الوقت . فكيف بأفراخ الطير في البيضة من غير دم الأم .

كما ان قدرته تعالى وحدها هي التعليل الصحيح للقدرةالتي اكتشفها العلمـــاء في خواص اصغـــر المخلوقـــات الحيـــة المعروفـــة حتى الان (الفـايـروسـات) فقـد تبين لهم حتى الآن اربعمـائة نوع منها وهي تحدث الـزكـام وغيـره فقـد تم استعمال جهاز يسحق الذرة في تحديد اشكالها ثم زودت المعلومات الناتجة الى كومبيوتر خاص متطور فوحدها واظهر شكلها في عشرين مثلثا من البروتين منها واحد ناتئ من الوسط نتوء فيه فتحة دقيقة تخرج منها الجينات التي تتغذى على انسجة الجسم . وليس هناك جسيم من جسيمـات الادويـة يمكنـه الـدخول في الفتحة الدقيقة بل ان هناك ما يتولد في الدم فيقضي عليها بتفاعله معها .

ويصـل عجـز الانسـان الى حد لا تعليـل بعده الا بقدرة الله تعالى فقد تمكن الانسان من الانطلاق بين الكواكب بسلطان من الله تعالى ولكن لا يمكن للانسـان الانطـلاق الى بعض كواكب نهـر المجـرة الـذي تعود اليه

---

(٢) البقرة/ ١٦٤.

ارضنا لأن المسافة التي سيقطعها الانسان اليها تتطلب مائة وعشرين عاما ذهابا وايابا اذا سارت المركبة التي يستقلها بالسرعة القصوى التي يمكن ان يتحملها الانسان.

وهكذا يتبادر الى ذهن المؤمن قول «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم» وقد أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله تعالى يقول عند ذاك: «اسلم عبدى واستسلم». (٣) اما ماذا يتبادر الى خلد الملحد عندما يرى آيات الله تعالى بحيث يعرض عنها فهذا لا يهم انما يهم ما سيفاجأ به من حسرة وندم عندما يكشف عنه غطاء الالحاد ساعة الوفاة فتقوم عليه الحجة ويعلم انه كان كاذبا. وهذه الحالة تعطينا الفرق بين سعادة الايمان وشقاء الالحاد، وهذا ما يلفت الفكر الى ناحية يعيشها الكثيرون في ملاحظة الفرق بين ما عليه المؤمن من سعادة وما عليه الملحد من شقاء فما هي مكافأة الله تعالى على الايمان في الدنيا؟ وما هي آثار المغفرة؟ هذا ما سيتناوله الباب التالي باذنه تعالى.

* * *

---

(٣) للحاكم في المستدرك عن ابي هريرة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الا ادُلُّك على كلمةٍ من تحت العرش من كنز الجنة تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فيقول الله: اسلم عبدي واستسلم» ورواه ايضاً النسائي في اليوم والليلة والترمذي من حديث ثوبان وحسّنة.

الباب التاسع عشر
مكافأة الله تعالى للمؤمنين، وآثار غضبه على الملحدين

في خبر عن سيدنا ابراهيم (ع) انه ناشد الله تعالى ان يرى من ملك الموت (ع) ما يكون عليه عندما يقبض ارواح المؤمنين فلما رآه في وجه مشرق البشاشة ولطف يأخذ في القلب مأخذاً حسنا وكلام رفيق بدعوة الملك الودود تعالى للقاءمن أحبَّ لقاءه، قال ابراهيم (ع): «والله لولم يكن للمؤمن الاّ هذا لكفى». [1] وهكذا تكون في وجوه التائبين سيماء البشاشة واشراقة السرور بينما نجد العكس في ملاحظةٍ لعاملٍ مسلم ذهب يعمل في بلد اوربي يكثر فيه الالحاد ويغلب فيه الكفر والفساد، فقد لاحظ ظاهرة القتر والكآبة في وجوه كثير من المسنّين يرافق ذلك تذمّرٌ ولعنات وضجر من الحياة مع حرصٍ على ما يعتبرونه من ملذّاتها.

واخذت هذا العامل المسلم رغبةٌ في معرفة سبب هذاالاختلاف بين المسنين في بلده الطيب وبين هؤلاء المسنين وبعد ايام من تعرّفه على أحد هؤلاء التعساء في محل سكناه اتضح له السبب فقد حدّثه عن شبابه الماضي وطيبات دنياه التي اذهبها في حياته الشابة الخليعة وها هوقد حُرِم من ذلك مع تقدمه في السن وبقيت في نفسه حسرة اكسبته هذا القتر وهذه الذلة. بينما طافت في مخيلة هذا الشاب صورة كثيرين من شيوخ بلده المسلم، لا سيما اولئك الذين عادوا من الحج مؤمنين بكونهم قد رجعوا كيوم ولدتهم امهاتهم وقد تمتعوا بضيافة الرحمن الكريم ثم زاروا الحبيب المصطفى الذي ترجى شفاعته وسمحوا هنالك لدموع الحنين ان تسيل

---

(١) من حديث طويل في باب (سكرات الموت) من كتاب الاحياء للغزالي حـ ٤/ ٤٤٩ طبعة القاهرة/ مطبعة الحلبي/ لم تذكر السنة.

وهم يملأون صدورهم من عطره صلى الله عليه وآله وسلم الذي فاح من طيبِ تربةٍ ضمت العفاف والجود والكرم، ثم زاروا مقبرة البقيع حفاةَ الاقدام احتراماً لمن حملوا راية الاسلام وارتضوا ان تفيض ارواحهم فداء لها ليجدوها يوم الدين في يد حبيبهم صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعة تحثّهم وتحدوهم الى جنان الخلد. وهكذا تنفذ حكمته تعالى في عبادِهِ: كما جاء في سورة الجاثية **﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحوا السيئات أَن نجْعَلَهم كالذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحات سَواء مَحْياهُم ومَماتُهم ساء ما يحكمون﴾**. [٢]

امـا التقـديرات الربانية في تصريفه تعالى لمجريات الامور على البشر وفق احوالهم فقد دلّهم تعالى عن اوجه منها بقدر ما يكون ضروريا للعبادة من معرفة بذاته الجليلة العزيزة **﴿لِيَجزي الذين أساءوا بِما عَمِلوا ويَجزيَ الذين أَحْسَنوا بالحُسْنى﴾**. [٣] وهذا ما سيتناوله الباب التالي باذنه تعالى. اما كافة تقديراته وحكمته فيها فقد حجبت عن البشر لأن انشغال البشر بدراستها يجعلهم في غفلة عن عبادته تعالى والتفكير بذاته كما انحرف فلاسفة الالحاد الى تَيْهٍ لا دليل فيه. اذن تقديره تعالى لِما علّم البشر من علم هو عون لهم على عبادته التي خلقهم من اجلها ليسعدهم بما اعد لهم من نعيم في جواره وبما ارسل به الرسل ليرشدهم الى هذا الصراط الحميد فلا يليق بالبشر الاستقراء اكثر مما علّمهم والا وقعوا في شبهات يدخل منها الشيطان ليقولوا على الله ما لا يعلمون او يفتروا عليه الكذب سبحانه..

* * *

(٢) الجاثية/ ٢١.

(٣) النجم/ ٣١.

الباب العشــــــرون
تصريفه تعالى علما وتقديرا

قال تعالى: ﴿الا لَهُ الخَلْقُ والأمرُ﴾.[1]

فالنفوس المطمئنة بالايمان لا تعترض على احكام الحكيم الخبير بل توقن انما هي قد جرت بتقدير رحيم. وهكذا يكون استسلام المؤمن نجاة من رذيلة الاعتراض الذي يكون حجة عليه في عدم نمو عقليّته واتساع افق علمه وسروره. فالمزيد من ذلك هو للشاكرين ﴿لَئِنْ شَكَرْتُم لأزيدَنَّكم﴾.[2] وان عدم زيادة افق المعترضين على الله تعالى يكون من رحمته تعالى حيث لم ينفعهم ما حملوه اولا فكيف يثقل عليهم؟

ومن امثلة الاعتراض على الله تعالى:

* الحسد: فهو اعتراض على توزيع النعم الربانية. وقد كشف الحاسد نفسه لفراسة المؤمن بكونه بعيدا عن فهم قدرة الله تعالى وحكمته بُعداً يتناسب مع شدة حسده. ومن علامات الحسد الدفين ان يبحث الحاسد عن زلاّتِ المحسود بل قد يختلق له زلات يتوهّمها حتى في فضائل المحسود. ويثير غيبةً لا صحة لها في كل مجلس ومناسبة وغير مناسبة مع تمنّيه زوال النعمة ولو بمأساة يتشفّى بها والعياذ بالله تعالى.
* البخل: وجه آخر من اوجه الاعتراض ويدل على غفلته عن الله تعالى وتصريفه الحكيم اذ اعطاه المال فتنة ودعاه للجود به في الوقت الذي كان بامكانه تعالى ان يُوَجِّهَ المال لذلك المحتاجِ الذي بخل عليه

---

(١) الاعراف/ ٥٤.
(٢) ابراهيم/ ٧.

المـوسـر قال تعـالى ﴿وجَعَلْنـا بَعْضَكم لِبَعضٍ فِتنـةً أَتَصْبرون؟ وكان ربُّـك بصيـرا﴾[3] فإذا كان البخـل نتيجة خوف من الفقر فهو استجابة لوعيـد الشيطـان بالفقـر اذا حاول العبـد انفـاق المـال لوجه الله تعالى ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكم الفَقْرَ﴾ .[4]

* المعاصي : تحمل الاعتراض على التوجيه الرباني بالامر والنهي فقد حرم الله الـربـا ثم يأتي عبـد يقتـرض بالـربـا ولسـان حاله يقول : (ان القـرض سيـدرّ علي كسبـاً باضعـاف كمية الربا فهل انا مجنون لأفوّت هذه الفرصة؟) ونسي قدرته تعالى على ان يرزق بدون ربا فاتّكل على نفسه في هوىً مخالفٍ استدعى الشيطانَ الغَرورَ ان يغرّ هؤلاء العصاة بربهم فزين لهم سوء عملهم وصدهم عن سبيله ما لم يتوبوا وينتهوا .

يحمـل الاعتـراضُ غرور الانسـان بمعـرفـة المستقبـل عن حسـابـاته وتوقعاته وتَنَبُّؤاتِهِ وقد فاتت عليه الثقة بالتصريف الرباني مع عباده باللطف والـرحمـة والـرفق مالم يتوكل العبد على نفسه فيخرج عن الشريعة وعندئذ يكله الله تعـالى الى نفسـه فلا يبـالي في اي واد هلك،اذ قال تعـالى فيهم ﴿وبَدا لَهُم من اللهِ ما لم يَكونوا يَحْتَسِبون﴾[5] وقال تعالى : ﴿ومن يُشاقِقِ الـرسـولَ من بعدِ ما تَبَيّنَ لهُ الهدى ويَتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُوَلّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنم وسـاءت مَصيـرا﴾[6]؟ ويحمـل التسليمُ الصـادقُ للتصـريف الرباني شعورَ الانسانِ بلطفه تعالى في ذلك ليميز الخبيث من الطيب وفق اسس من الحكمة الظاهرة والخفية من اجل غاية معلومة عنده في الأزل .

---

(٣) الفرقان/ ٢٠

(٤) البقرة/ ٢٦٨ .

(٥) الزمـر/ ٤٧ .

(٦) النساء/ ١١٥ .

ويتبادر هنا التأسّي برسولِ الله،صلى الله عليه وآله وسلم،الذي صدع بما امره تعالى ولم تأخُذْه في ذلك شِدّةٌ او عقبة.واذا حزّ أمرٌ وشقّ عليه قال لمولاه تعالى ﴿إنْ لم يَكُنْ بِكَ غضَبٌ عَليّ فلا أُبالي﴾(٧)

اما الاسوة السيئة في هذا الباب فهو ابليس،نعوذ بالله تعالى منه،اذ قال معترضاً ﴿أأسْجُد لِمَن خَلَقْتَ طينا﴾(٨) ثم أصرّ واستكبر فأستحق اللعنةَ والعذاب .

قال تعالى : ﴿ما يَفْعَلُ الله بِعذابِكُمْ إنْ شَكَرْتم وآمَنتم وكان الله شاكراً عليما﴾(٩) وقال تعالى عن الذين منع عنهم الهدى بقسوة قلوبهم ﴿ولو عَلِمَ الله فيهم خيراً لأسْمَعَهُم، ولو أسْمَعهم لَتَولّوا وهُمْ مُعْرِضون﴾ .(١٠) والمنازل بين الشاكرين والمنكرين تكون لمن البسوا ايمانهم بظلمٍ فمنهم من خلط عملاً سيئا وآخر صالحا عسى الله ان يتوب عليهم.ومن اذاقهم الله تعالى العذاب الادنى في الدنيا أملاً يرجعوا اليه . فأذا اسعده الحظ كان كالجواد الاصيل كما اتصف بذلك المؤمنون اذا كبا احدهم قام واسرع فأذا به قد وصل وشأنُه اعلى من ذي قبل.إذ من خواص الابتلاء تأديب يرفع الشأن حتىٰ ينال المؤمن وعد الله تعالى بالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء بالحسنى في الآخرة فأن كان المؤمن في دينه صلبا اشتد بلاؤه وان كان في دينه رقةً أُبْتُلِي على قَدَرِ دينِه فلا يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الارض وما عليه من ذنب كما جاء في

(٧) ابن اسحاق، وابن جرير، والطبراني .

(٨) الاسراء/ ٦١ .

(٩) النساء/ ١٤٧ .

(١٠) الانفال/ ٢٣ .

حديث شريف عن الابتلاء.(١١)

يُعرَفُ الدّاخلون في رحمة الله تعالى بما يتحلون به من دلائل الصلاح بحيث لا تكون فيهم صفة فاكثر من صفات الضالين او المغضوب عليهم. فاذا عُرِض الحق على احدهم ذاب فيه قبولاً وتسليماً اما الضالون فقد اتبعوا ما ليس من امر الدين في شيء وهي البدع واذا قيل لاحدهم اتق الله اخذته العزة بالاثم واخذ يبرر موقفه بمعاذير لا يعقلها العالمون. فماذا يؤمل للصنف الاول من تصريف الخالق العظيم الذي يتولاهم؟ وماذا يخشى على الصنف الثاني من مصير أصروا على سلوك سبيله؟ فالشؤون الربانية التي يجري بها تصريفه تعالى تختلف مع العباد بتغيُّرِ أحوالهم مع ثبات في تنزيه الله تعالى عن الظلم وخِلف العهد. ويؤمل التصريف الالهي برفع منازل اهل الصدق والاتباع الصحيح كما يخشى على اهل النفور والابتداع ان ينسلخوا من النور الرباني الى ظلمات بعضها فوق بعض ﴿**الله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم من الظُّلمات الى النورِ والذين كفروا أَوْلِياؤهم الطاغوت يُخْرِجونهم من النور الى الظلمات**﴾.(١٢)

اول منازل اهل الصدق التوبة النصوح حيث تُدخِل التائب في ولاية الله تعالى «والحديث عن الولاية في الباب السابع والعشرين» ثم يلي ذلك منازل الايمان والعمل الصالح والهدى والفلاح والتقوىٰ في الرجاء والخشية والشكر مع ثبات النية على كمال التقوى اي الاستقامة على قصد

---

(١١) قال صلى الله عليه وآله وسلم: انا معاشر الانبياء اشد بلاء ثم الامثل فالامثل. يُبتلَىٰ الرجل على قدر دينه فان كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وان كا في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه فما يبرح البلاء في العبد حتى يتركه يمشي على الارض وما عليه من ذنب» رواه احمد والترمذي وابن ماجة عن سعد.

(١٢) البقرة/ ٢٥٧

السبيـل حتى يأتي اليقين. وهـذا ما يؤمـل معـه ثبـات النعمة الربانية على اضطـراد الـرفعـة ما استقـاموا فلا تغير في صلاة الله تعالى عليهم وملائكته ليخـرجهم من الظلّمـات الى النـور. فاذا اتت هذه الآيات عبدا ثم انسلخ منها واخلد الى الارض فهل يستمر التصريف الرباني معه مع ثبات الحلم والعفـو؟ يقـول تعـالى: «ذلك بأنّ اللهَ لم يكُ مُغيِّراً نعمةً انْعَمَها على قومٍ حتى يُغَيِّــروا ما بِأنْفُسِهم وأنّ اللهَ سميــعٌ عليم﴾[١٣] فهـو تعـالى يميـزهم بالتقـوى ويحـذرهم من المخـالفـة «فَلْيَحْـذرِ الـذين يُخالِفون عن امرهِ اَنْ تُصيبَهُم فِتنــةٌ او يُصيبَهم عذابٌ اليم﴾.[١٤] وهكــذا يجــري التصـريفُ الـربـاني مع العبـد، فهـو تعـالى ودود ولكن هذا الـود يحجبـه انتقامٌ لمن اغضبـوه. قال تعـالى ﴿**فلمـا آسفـونا انتقمنا منهم**﴾[١٥] اي فلما اغضبونا انتقمنا منهم وهو عالم الغيب فلا يسبقه مخادع ولا يسبقه ماكر وهذا العلم الـربـاني بالغيب من ضرورات الصفة الالهية التي احكم بها تصريفه في امور خلقه تصريفا تتجلى به رحمته التي وسعت كل شيء.

وسيتنـاول البـاب التالي بعونه تعالى ما يناسب من علمه تعالى بالغيب وهو اوسع واعلم..

* * *

---

(١٣) الانفال/ ٥٣

(١٤) النور/ ٦٣.

(١٥) الزخرف/ ٥٥.

الباب الحادي والعشرون
علمه تعالى بالغيب وما علمنا عن ملكوته

لا يخفى ان الغيب هو ماغاب عن الحواس من ماض لم يكشف، ومن حاضرٍ تَحُولُ دون معرفته مسافات او حواجز، ومن مستقبل يخبئه كَرُّ الايام ومن عالم الملكوت الذي لابد منه ولكن هذا العالم المغيب عن البشر ليس عالم غيب عند الله تعالى بل عالم شهادة اما عالَم الملكوت فهو الجهاز الذي يمكن التعرف على واجباته من آثاره كما يعلم الناس بوجود جهاز حسبة وبريد من وصول المعلومات للأمير عن الأمصار البعيدة ولكن الناس لا يرون او يعلمون اسلوب عمله. وعالَم الملكوت الرباني محيط احاطة المحيطات باليابسة وهو هيمنته تعالى وعلمه الذي وسع كل شيء ﴿اَلَا يَعْلَمُ من خَلَقَ وهو اللّطيفُ الخبير﴾[1] فلا يخفىٰ عليه ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى. ولا يخفى عليه ما يبديه الانسان وما يخفيه وما هو سر وما هو اخفى، أي اخفى من السر، اي الامر الذي لو علمه صاحبه لأخفاهُ. وقد علّمنا تعالى انه عنده جند مجندة لتنفيذ هيمنته ﴿وما يَعْلَمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هو﴾[2] فلا تسبق الله تعالى مبادرةٌ من عبدٍ اذ قد سبقها بعلمه الأزلي وأَعَدَّ لها من التصريف ما تقتضيه رحمته تعالى كما علّمنا تعالى بالأدلة على امور يقينية لا تزال غيباً وعلى بداهات لابد منها في ملكوته، واليقين هو استقرار التصديق بالعلم كما يقن الماء في اسفل الحوض، فقد عرج تعالى بحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأراه من آياته الكبرى فكان كالدليل الذي ينتظر الركبُ اخبارَهُ. فاذا

---

(١) المُلك/ ١٤.

(٢) المدثر/ ٣١.

قال دليل قافلة بأن وراء الاكمة وحشا مخيفاً وكان الدليل من الصادقين فإن القـافلة قد حصـل عندها علم اليقين بذلك. بينما حصل ذلك عين اليقين لدى الـدليـل لأنـه عاين الـوحش. فإذا تقـدم رماةٌ من الركب نحو الوحش ورأوه فقد تحوّل لديهم علم اليقين به الى عين اليقين.

وهكـــذا قال تعـالى عمـا رآه الـرسـول صلى الله عليـه وآلـه وسلم ليلة المعراج﴿ماكَذَبَ الفؤادُ ما رأى﴾[٣] فلما اخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلـك كان هنـاك مصـدقـون من المؤمنين ومنكرون من الكافرين او المترددين. فأما المصدقون فقد ارتاحت نفوسهم لما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من الحق الذي كانوا ينشدونه ومن تعليمهم سبل العبادة بالصلاة وغيـرهـا مما ازال عنهم كثيرا من التساؤل في كيفية العبادة التي يريدون ان يؤدوها. واما المنكرون فقد حجبتهم اهواؤهم عن التصديق، فلما جاءت ادلـة من القـافلة التي ايـدت ما وصفهـا عليـه الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ رآهـا في اسـرائـه في طريقهـا من الشام الى المدينة المنورة إزداد المؤمنـون ايمـانـا وارتضى الـذين تردّدوا في البـدايـة هذا الـدليلَ. واصرّ المستكبرون على الانكار بتبريرات من زخرف القول غرورا.

وكمـا احتـاط الركبُ الذي صدّق الدليل عندما اخبرهم بوجود الوحش فكـذلـك عُرف اهـل الايمان والتصديق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآلـه وسلم ممـا ابـدوه من اذعان ورضى وطاعة وصَدَقَ من قال «الايمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل».

امـا الـذين انكرت قلوبهم ورددوا التصديق بألسنتهم فقد عرفوا بالنفاق

---

(٣) النجم/ ١١.

فلمـا جاءت ادلـةٌ وشـواهـدُ على صدقِ الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم تحـوّل الكثيـرُ منهم الى الايمـان. امـا الـذين انزلقوا بالفتنة استكبارا فقد اقـامـوا الحجـة على انفسهم وطبع الله على قلوبهم أي لم يفتح لهم بعلم اكثر من الحد الذي لم يستفيدوا منه مهما كان ذكاؤهم. ولهذا كانوا يقولون بعـد سمـاع القـرآن الكريم من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ماذا قالَ آنِفاً﴾[٤] بينما كانوا اهل ذكاء وبلاغة.

ويـزول الشـك ولا تبقى حيـرة على ضوء معرفة علم الله تعالى بالغيب حيث تستقر حقائق ومعاني كثيرة فتنجلي واضحة للبصيرة. ومن قبيل ذلك قولـه تعـالى على من يتبع السحر سبيلا: ﴿وما هُم بِضارِين به من احدٍ الا بِأَذْنِ الله﴾. [٥] اي انه تعالى سبق علمُه بالغيب بان اولئك الساحرين ومن التجأوا اليهم سيتخـذون هذا السبيـل فقطـع عليهم مكـرهم الاّ بمـا يأذن بحدوثه استدراجاً لهم منه إذْ اقترن عملُهم بحصولِ الغاية من سحرهم في الظـاهـر فقـد آمنوا بالسحر والجن وكفروا بالله تعالى فلا يبقى لهم على الله تعالى حجة وقد فاتهم ان عالم الغيب اسرع مكرا وانه قادر على ان يمنع ما حصل او يأذن بما حصل حسب تصريفه وتقديره وحكمته من رحمته وعلمه قبل كل شيء فالمكر السيء الذي مكروه من اجل غاية معينة قد حاق بهم حجـة عليهم في ادخـالهم النـار ﴿ولا يَحيقُ المَكْرُ السيء الا بأهلِهِ﴾. [٦] وهنـا يجـدر ايـراد قول الفقهـاء بأنـه لا توبة لساحر وهذا ايضا من علم الله تعالى بالغيب فقد علم تعالى ان الساحر سوف يُصِرّ على هذه الكبيرة رغم الهـدايـة والفرص الكثيرة عندما بدأ خطواته الاولى نحو الانزلاق، فقد قال

---

(٤) محمد/ ١٦.

(٥) البقرة/ ١٠٢.

(٦) فاطر/ ٤٣.

تعـالى : ﴿وَلَـو عَلِمَ الله فيهم خَيراً لأسْمَعَهم﴾[٧] فلماذا اذن يسمعهم وهو يعلم ان ذلك لن ينفعهم من شدة قسوة قلوبهم التي لا تلين لحق اولهدى؟ ﴿ولو أسْمَعَهم لَتَولّوا وهُم مُعْرِضون﴾[٨] فلم يثقل عليهم وزرا آخر فوق اوزارهم.

يعلم تعالى عبادا لا يرجون رحمته ولا يبدون خشية من عذابه وانهم لن يفعلوا ذلـك مهمـا طال عليهم الأمـد وان ارسل اليهم رسولا فلا تكون أذن مشيئتـه لهم بالضـلال عبثـا لأن سبب الهـدى، وهـو الانـابـة، لن يحصل لديهم. ﴿ويهدي اليه من أناب﴾[٩] والانابة تأتي من الايمانِ ﴿ومن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلبَهُ والله بِكلِّ شيء عليم﴾[١٠] والايمان يتبع رغبة العبد بالصلاح اي ندمـه على فعـل المنكـر ﴿ربُّكُم أَعلمُ بمـا في نفـوسِكُم، إن تكـونوا صالحين فانـهُ كان لِلأوّابين غفـورا﴾.[١١] وقال تعالى ايضا ﴿إلّا من تابَ وآمَنَ وعَمِـلَ عمـلاً صالحـاً فأولئـك يُبَـدِّلُ الله سيئـاتِهم حسناتٍ وكان الله غفورا رحيماً * ومن تابَ وعَمِلَ صالِحاً فإنه يتوبُ الى الله متابا﴾[١٢] وهذا المتـاب اي الانقطـاع الى التـوبة هو الانابة ولهـم البشرى بالاستقامة على العمل الصالح اي العمل الذي فيه طاعة الله وبهذه الطاعة وحدها يكونون قد اتخذوا الله تعالى رباً لا شريك له.

فهـل بعـد هذا العلم الـربـاني بالغيب يستجيب المؤمن الى وسـاوس

(٧) الانفال/ ٢٣.

(٨) نفس الآية السابقة.

(٩) الرعد/ ٢٧.

(١٠) التغابن/ ١١.

(١١) الاسراء/ ٢٥.

(١٢) الفرقان/ ٧٠ و ٧١.

الصـدر في الخـوض في حديث القَـدَرِ والكذب على الله تعالى بغير الحق فيُنسَبُ للهِ تعـالى الشؤونُ والتقـديراتُ المبنية على ظَنِّهم الخاطىء بتقدير الله تعـالى على العبـاد بما سيكونون عليه وكأنه تعالى لا يعلم الغيب وكأن مشيئتَـه تعـالى قد ابطلت فعـل مشيئـاتهم التي لم تتحقق بفعـل مشيئته اذ لايكون في ملكه ما لا يشاء وهكذا امرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بقـولـه «اذا ذكر القدر فأمسكوا»[13] فاذا اختص احداً برحمته بمشيئةٍ حكيمـةٍ منـه فإنـه اعلم حيث يجعلهـا وقـد امتـدح اولئك الذي استحبوها وسعـوا لهـا سعيها فاختصهم بها وكان سعيهم مشكورا؛ ﴿يَخْتَصّ بِرحمتِه من يشاء﴾ .[14]

ومن مظاهر الغفلة عن علم الله تعالى بالغيب بحث فئة من الناس عن امـور خارقـة للعادة واسموها كرامات اتخذوها غاية وسعوا من اجلها. فمن صدق منهم وخلُصت نيتُـه لله تعـالى فأنـه تعالى يهديه الى صراط مستقيم ومن أراد اظهـار نفسـه فقـد مكـر مكـراً سيئاً يحيق به إذْ يكتشف ان اصراره على مخـالفـة السُنَّـةِ النبوية الشريفة وسبيل المؤمنين ما هي الا مشاققة لله وللرسول ﴿ومن يشاقِقِ الرسولَ من بعدِ ما تبيّن له الهُدى ويَتبع غير سبيل المؤمنين نولّهِ ما تولى ونُصْلِه جَهَنَّمَ وساءت مصيراً﴾[15] ويكتشف انه كان ممكـورا بمكـره اذ خرج عن الشـريعـة بذلـك فلا تنفعـه حسرة ندم ساعة المـوت لا ترتـد اليـه الى يوم القيـامة قال تعالى: ﴿واتَّبِعوا احسن ما أُنزِلَ اليكم من ربكم من قبـلِ ان يأْتيكم العـذاب بغتـةً وانتم لا تَشْعرون * ان تقولَ نفسٌ يا حسرتىٰ عِلى ما فرّطتُ في جَنْبِ الله وإنْ كنتُ لَمِنَ

(١٣) الطبراني عن ابن مسعود.

(١٤) البقرة/ ١٠٥.

(١٥) النساء/ ١١٥ .

الساخرين﴾ .[16]

ولا بد من إفـراد باب لأظهـاره تعـالى للمعجـزات للانبيـاء والكرامات للأولياء كما سيلي بعونه تعالى .

* * *

(١٦) الزمر/ ٥٥ و٥٦ .

البــاب الثاني والعشـــــرون
اظهاره تعالى للمعجزات والكرامـــات

لقد عرّفنا تعالى بأنه لا يرسل بالآيات لمن سيكذب بها لعلمه بالغيب اولا ولأن الـذين جاءتهم الآيـات وكذبوا بها نالهم عذاب اليم شديد، ثانياً ﴿وما منعنا ان نُرْسِل بالآيات الاّ ان كَذَّبَ بها الاوَلون ﴾...(1) ﴿وما نُرْسِلُ بالآياتِ اِلاّ تَخوِيفاً﴾(1)

وهذا لا يعني انقطاع الآيات والكرامات لأهل التصديق وهذا ما حصل للرسـول الكـريم صلى الله عليـه وآلـه وسلم امـام اصحـابه الكرام وهو ما يحصل الى يومنا هذا بضرورة واسباب حكيمة ولن ينقطع ذلك الى ما شاء الله تعالى.

وتتعـدّد صور الآيـات والكـرامـات والحجـج التي يختص بهـا اوليـاءه الصـالحين فمنهـا ما هو خارق للمألـوف من عادة وطبيعة ومنها ما هو موافق لهـذه السنن. فامـا المخـالف الخـارق للمألوف فهو ما يدور الحديث عنه بدهشـة واعجـاب بين الناس، واما الموافق فهو النعم المألوفة التي لا تعد ولا تحصى. اليس من الكرامة ان يشفى مريض بدواء وضع تعالى فيه سر الشفاء؟ اليس من الكرامة ان يحصل كل عبد على رزقه بتقدير سليم وتدبير حكيم؟ اذن فالحكمة الربانية نافذة في خلقه كما هي في اللوح المحفوظ و﴿ما اصابَ من مصيبةٍ في الارضِ ولا في انفُسِكُم إلاّ في كتابٍ مِنْ قبلِ ان نبرأها ان ذلك على الله يسير﴾(2) فماذا على العبد الصالح التائب بعد ذلـك سوى ان يستقيم على ما امـره الله تعالى به ﴿فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ومن

---

(1) الاسراء/ ٥٩.

(2) الحديد/ ٢٢.

تابَ معك﴾. [٣]

اذا دخل العبد في حمى الرحمن بالطاعة والتوكل فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها وهذا ما يجعل العبد اهلا للكرم الرباني بالولاية والحفظ والدفاع والهدى والارشاد. فاذا استوجب امر من امور هذه الولاية ان يكرم الله عبدا كرما خارقا للعادة فان ذلك على الله يسير ولا يبخل به لمن يستحقه. اما العبد الصادقُ فيشكر اللهَ تعالى ويستحيِي اَن يُشيدَ بما أكرمه الله تعالى به كما تستحيي رباتُ الخدور. وانه لا يذكر ذلك إلاّ من قبيل تمجيد الكرم الربانيّ لِدِلالة المؤمنين وليس لاظهار شأنِ الذي نال الكرامة. فهل يطلب الله تعالى من المؤمن نسيان الرب الذي اكرمه والانشغال بالنعمة عنه؟ كلا وقد صدق من قال: «لا تنظر الى نعمتك ولكن انظر الى من انعم عليك». [٤] اذن يكون عمل الذين يقومون بأفعال لم ينزل الله بها من سلطان ليحصلوا على ظاهرة خارقة للعادة عملاً من اجل اظهار انفسهم بمنازل الصالحين امام المنكرين وغيرهم. فاذا أذِن تعالى بتحقيق غاياتهم، وهو اعلم بها، فقد استدرجهم الى غفلة طلبوها بجهودهم فحجبهم هذا الطلب عن الشعور بلطفه تعالى وبامره ﴿فاسْتَقِمْ كما امرتُ ومن تابَ معك﴾[٥] فكان ذلك حجة عليهم ما لم يتوبوا إلى الله ويتبعوا سبيل من اناب اليه. ومن تاب فأنه لابد له ان يُخْرِجَ الكرامات من حسبانه فيجعل الصدقَ صلةً بينه وبين الله تعالى فاذا اكرمه تعالى بأمرٍ يدخل السرور عليه فهل ينشغل بالكرامة وينسى المنعم بها؟.

مما يدعو طلاب الكرامات الذين يقومون من أجلها بجهود مخالفة

(٣) هود/ ١١٢.

(٤) سمعته في المواعظ وخطب الجمعة وقرأته في مطالعاتي.

(٥) هود/ ١١٢.

للسنة الشريفة ان يتوبوا هو أن يضعوا امام اعينهم الحقائق التالية :-

- كشف تعالى للكفار ملائكةً ارسلهم على شكل فرسان على خيول بلق يقاتلونهم مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكشف ذلك للمؤمنين الذين كانوا يقاتلون مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهل كان هذا الكشف كرامة للكافرين وحرمانا من الكرامة للمؤمنين؟ ام يقضي الله تعالى به أمراً كان مفعولا؟ .[٦]
- يمرق نوع من الاسماك ملامسا لسطح الماء ويطير الطير في جو السماء فهل هذا للسمك والطير كرامة وهل السمك والطير أفضل من المؤمن الذي هو عند الله تعالى اعز من مكة كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لمكة : «ما اعظمَكِ واعظَم حُرمَتَكِ، والذي نفسي بيده لَحُرمةُ المؤمنِ اعظمُ حرمةً منكِ»[٧] فالبشر لا يمشي على الماء ولا يطير في الهواء الا اذا اراد الله له من ذلك كرما فقد جعل النارَ برداً وسلاما على ابراهيم ولم يطلب سيدنا ابراهيم عليه السلام ذلك من ربه بل كان يؤمل النجاة ثقة بالله تعالى . والعبد لا يمتحن ربه بطلب الكرامة بل يمتحِنُهُ الله تعالى بالاستقامة .

ان الكرامة هي تسبيح المخلوقات بحمد الخالق القدير وتسخير من الله تعالى كما جاء في سورة الجاثية ﴿وسَخَّرَ لكم ما في السماواتِ والارضِ جميعاً منه اِنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾[٨] وليست غايةً تخرج بطالبها الى الغفلة عن الله.وقد قال تعالى ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والانْسَ اِلاّ لِيعبدونِ * ما اُريدُ مِنهم مِن رّزقٍ وما اُريدُ ان يُطْعِمونِ * اِنّ الله هو

(٦) من محاضرة للدكتور عماد الدين خليل استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة الموصل سنة ١٩٧٣ .

(٧) متفق عليه .

(٨) الجاثية/ ١٣ .

الرّزّاقُ ذو ٱلقُوَّةِ المتِينُ ﴾. [9] وقد جاء الحديث القدسيُّ جامعاً لذلك: «يا عبدي خلقتك لأجْلي (اي لعبادتي) وخلقتُ كلَّ شيء لأجْلِك فَبجاهي عليك لا تترك ما خلقتُك لاجلِه من اجلِ ما خلقتُه لأجْلِكَ». [10] اي لا تترك عبادتي منشغلا بنعمتي عنّي

اذن لم يحصل صرف قلوب الغافلين عن آيات رب العالمين عبثا فان موقف الله تعالى منهم هو صرف قلوبهم لأنهم لم يفقهوا سر الخلق للعبادة بل انشغلوا بالنعمة ونسواالمُنعِمَ.امّا تصريف الله تعالى مع قلوب عباده فهو موضوع الباب التالي باذنه تعالى..

* * *

---

(٩) الذاريات/ ٥٦ـ٥٨.

(١٠) سمعته في موعظة ولم يتيسر لي مصدره في كتب الاصول التي تيسرت في تخريج احاديث هذا الكتاب. وقد ثبته لسماعي اياه من عالم لا اتهمه.

الباب الثالث والعشرون
تقليبُه تعالى للقلوب

قال تعالى في سورة الانفال ﴿يا ايُّها الذين آمَنوا اسْتجيبوا لله وللرسولِ اذا دعاكُم لما يحييكم، واعلَموا ان الله يَحولُ بين المَرْءِ وقلبِهِ وانه اليه تُحْشَرون﴾[1]. وقال تعالى ﴿فانها لا تَعمىٰ الابْصار ولكن تَعمىٰ القُلوبُ التي في الصدور﴾[2]. وقال تعالى ﴿صَرَفَ الله قُلوبَهم بأَنَّهُم قومٌ لا يفقهون﴾[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم «إِنَّ القلوبَ بين إصبعين من اصابعِ اللهِ يُقَلِّبُها». [4]

القلب المقصود هنا هو مأوى الفكر الذي تجول فيه الخواطر فهو يحضر مع خاطرة وينصرف عن خاطرة ويسمى تركيزه على خاطرةٍ اوعلمٍ بـ(حضور القلب). وقد وردت ايضاحاتٌ للخواطر في اقوال الصالحين من الاشارات التي وردت في القرآن الكريم ويمكن اجمال ما قيل في ذلك بأربع نقاط:

١ - الخواطر التي تحمل الرحمة والمحبة وما يتبعُهما من كرم ولطف ورفق ومعونه وعفو وارشاد وتعليم وفضائل سامية، تكون مستمدة من الخالق تعالى فهو المتصف بهذه الصِفات.ولا يجعل كل القلوب تحضر هذه الخواطر بل يصرف القلوب التي لا تفقهها لِقسوة اصحابِها في قبول الحق أو المحبة. قال صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الانفال/ ٢٤.

(٢) الحج/ ٤٦.

(٣) التوبة/ ١٢٣.

(٤) رواه احمد في مسنده عن انس.

«حُسْنُ الخُلُقِ خُلُقُ الله الاعظم»[٥] فالخُلُقُ الرباني يوهب لمن هو اهله[٦] فاذا ذكر القلب ربه بصدق فان الله تعالى يذكر صاحبه بالكرم الرباني باخلاقه وبزيادة العلم عن طريقه لانه قلب صادق رقيق لا يحول شيء من الظلمات دون وصول النور اليه ﴿**فأذكُروني اذكُرْكُمْ**﴾ .[٧]

٢ - خواطر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتمسك بالشريعة واتباع الاوامر للدخول في ولاية الله تعالى ، وهذه الخواطر ترد الى القلوب التي يصدُقُ أصحابُها في اِتِّباعِها ﴿**تَنزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإِذنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ امرٍ * سلام . . .**﴾[٨] حيث تؤمر الملائكةُ بذلك لمن هو أهلٌ لعلم الشريعة وعلم المعرفة بالحق والباطل ولا تَرِدُ الى القلوب المنشغلة بما يُخالِف ذلك كما سبق وجاء في الباب الثالث عشر.

٣ - خواطر الميل الى الشهوات التي زُيِّنَ حبُّها للناس ﴿**زُيِّنَ لِلناسِ حُبُّ الشهواتِ من النِساءِ والبَنينَ والقَناطيرِ المُقَنطَرَةِ من الذهبِ والفِضةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والانعامِ والحرثِ**﴾[٩] فما ورد من ذلك على القلب فهو من النفس التي ترى في هذه الشهوات زينة فان ارجعتها للشريعة فالْتَزَمَتْ بالمُباح وتركت الشبهات والحرام فقد انتهت عن الهوى المخالِف ودخلت في حمى التوكل على الله تعالى . وان لم تنته فقد تهيأت لقبول الاساليب الشيطانية في النوع

---

(٥) الطبراني في الأوسط عن عمّار بن ياسر.

(٦) قال تعالى : ﴿**فأنزَلَ الله سَكينَتَهُ على رَسولِهِ وعلى المؤمنين وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى وكانوا أَحَقَّ بها وأهلَها وكان الله بكلِّ شيء عليماً**﴾ / الفتح / ٢٦ .

(٧) البقرة/ ١٥٢ .

(٨) القدْر/ ٤ و ٥ .

(٩) آل عمران/ ١٤ .

الـرابـع من الخـواطـر. اي **﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْـرِ الـرحمٰن نُقَيِّضْ له شَيْطاناً فهوَ له قرين﴾**[10] ويُوسْوِس له بالخواطر التالية:

٤ ـ خواطر البخل والشح والفحشاء والقطيعة والبغضاء والعداوة وما اليها، وهي من عمل الشيطان.

* فالبخل يأتي من تهديد الشيطان عند النفقة: بانّ المال سينفذ ولن يبقى شيء للعيال! ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾[11]
* والفحشـاء تأتي من اوامـر الشيطـان عنـدمـا يغرى الانسان المتبع للهـوى المخـالف للشرع بان سيكسب مثلا النشوة بالحرام بمبلغ يقـل عمـا يدفعـه غيـره او ان هذه فرصـة لا تتكـرر ولا تتيسر لغيره وهكذا. **﴿ويأمركم بالفحشاء﴾**.[12]
* والبغضاء بالرجز الذي يعمله الشيطان من خمر وميسر كما جاء في القـرآن الكـريم **﴿إنَّمـا يُريـدُ الشيْطـانُ ان يوقِـعَ بينَكم العَـداوَةَ والبَغْضاء في الخمرِ والمَيْسِر﴾**[13] وهكذا.
* الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة **﴿ويَصُدَّكم عن ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ﴾**[14]

فما هو حظ الانسان من قلبه وما هو حظ القلب من هذه الخواطر؟

اذا اعتُبِـرت النفسُ ملكـةً في مملكتهـا تفعـل ما تشاء فالمِلِكُ عادةً له وزيـر ينصحـه ويعـرِّف له عمله فإذا كان الـوزيـر قد خبر الحياة وصدق مع الملك فانـه سيتبـع الكيـاسة في اقناع الملك باتّباع الحق. وهكذا العقل فهـو وزيـر النفس فاذا كان موهـوبـا بالسعـة والحجة المقنعة فهنيئا للنفس

---

(١٠) الزخرف/ ٣٦.

(١١ و(١٢) البقرة/ ٢٦٨.

(١٣) و(١٤) المائدة/ ٩١.

بوزيرها اذا استجابت لنصحه ولكن ما هي صلة العقل بالعالم الخارجي؟ هنايأتي دور القلب الذي يجول في الخواطر وتجول فيه فينقل الى العقل ما يرى انه مقبول عنده من خواطر. وهكذا كان القلب للمؤمن دليلا صادقا كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «استفتِ قلبَك وإنْ افتاك المُفتون وافتَوكَ وافتوك»[١٥] وصدق من قال «قلب المؤمن دليله»[١٦] اما القلب الذي لا يقبل منه الحق والخير فقد اغلق بقسوة صاحبه عن نقل ذلك وكَلَّ ومَلَّ منه فعمي فلا يهتدي الى سبيل الرشاد. وصدق من قال «ان القلوب اذا كلّت عميت»[١٧] قال تعالى: ﴿ولٰكنْ تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدور﴾[١٨].

وقال تعالى: ونُقلِّبُ افئدتَهم وابصارَهم كما لم يؤمنوا به اولَ مرّة ونَذَرُهم في طُغيانِهم يعمهون»[١٩].

رُبّ مَن يسألُ عن دور الروح في هذه المكوِّنات.

لا يبقى للروح سوى كونها مصدرَ الطاقةِ اللازمةِ لمظاهر الحياة فهي اشبه بالبطارية في جهاز إستقبال إذاعِيّ. فالروح مستمرة بالعمل الى الاجل الذي أُجِّل لها. ولكن النفس التي ينصحها العقل تختار الخواطر التي تهواها وهكذا. ولا يليق البحث او الحديث عن الروح فقد امسك عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذ امره تعالى ان يقول: ﴿الرُّوحُ مِنْ أمْرِ ربّي﴾[٢٠].

---

(١٥) رواه البخاري في التاريخ واحمد والدارمي في مسنديهما وقال السيوطي حديث حسن.

(١٦) اورده صاحب كشف الخفاء جـ ٢ برقم ١٨٨٧ وقال ليس بحديث.

(١٧) من حديث اوّله: «روِّحوا عن القلب ساعةً بعد ساعةٍ فان القلوبَ اذا كلّت عميت» وجدته في مطالعاتي وتحته عبارة (حديث شريف) ولم اعثر عليه في كتب الاصول التي تيسرت لي.

(١٨) الحج/ ٤٦.

(١٩) الانعام/ ١١٠.

(٢٠) الاسراء/ ٨٥.

من هذه المعلومات يتضح جانب بَدَهيّ من تصريف الله تعالى للقلوب فهو تعالى إمّا يعمرها بنوره **﴿افمن كان مَيْتاً فأَحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾**[21] ذلك لمن خَشِيَ ربّه اي ان النفس التي تشجع العقل على اختيار الحسن لِتعمل به تجد لها عونا من الله تعالى بزيادة الهدى اي بتقليب القلب نحو الخير لأنها أستفادت من ذلك. أويصرفها عن نوره تعالى اذا استحبت الهوى المخالف للشريعة فقد عطلت عندئذ نشاط الخير في القلب فلا يكون من الله تعالى عون على الفحشاء والمنكر فلا زيادة في الهدى ولا قوة للعقل مهما بلغ الذكاء من سمو. **﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**[22]

اما شأن الله تعالى مع النفس فايضاحه في الباب التالي بعونه تعالى حيث سيتضح للقارىء المؤمن اساسٌ اوقياسٌ للانتباه الى معرفة النفس عن طريق معرفة الله تعالى في شأنه مع النفس فاذا عرف الانسانُ ربَّه تعالى عرف حقيقة ما يمر به من امور ثم ما ينبغي ان يتخذ ازاءها من قصد وعمل.فإلى الباب التالي بتوفيقه تعالى للصواب.

* * *

---

(٢١) و(٢٢) الانعام /١٢٢.

البــاب الرابع والعشــــــرون
شأنُهُ تعالى مع النفس الانسانية في تقواها وفجورِها وتعريفها في منازلها وحــــدودها

من المعرفة الكافية عن هدى الله تعالى لابد ان تكون الفطرة التي فطر الله النفس عليهـا سليمـة كما هي عدالته الشريفة الجليلة. ولابد ان تكون ملهمـة بالفجـور والتقوى لكي تميّز بينهما ثم لابد ان يأتيها علم من الرسل لكي تحاسب حسب مقاييس علمها.[1]

ألبس تعــالى هذه النفس جســدا تعيش به في جوّ الارض وجعـل في جسـدهـا احـاسيس مادية بالنشـوة والالم وفي فكـرهـا احسـايس مجازية بالسعادة والشقاء. وجعل من حياتها ظروفا شتى يكون لها اكثر من حال مع كل ظرف من هذه الظروف اي انها في ظرف الفقر اما تصبر واما تتذمر وفي ظرف الغنىٰ إمّـا تشكـر واما تبطر وهكذا في بقية الظروف كالجهاد فهي اما تنكص وامـا تقتحم ومـا الى غيـر ذلـك من ظروف تحتـويها. الا انه تعالى افهمها اي حال يرضاها منها واي حال لا يرضاها **﴿إن تَكفُروا فإنَّ الله غنيٌ عَنكُم ولا يَرْضىٰ لِعِبادِهِ الكُفرَ وإنْ تشكَروا يَرْضَه لكم﴾**.[2]

ويقيّم تعـالى قيمـة النفس على قدرهـا من احوالها فيضعها في صنفها الـلائق لسمـوهـا او صنفهـا الذي استحقته بانحطاطها ثم يتوفاها ثم يبعثها لتكون في منزلتها والانسان على نفسه بصيرة.

---

(١) قال تعالى: **﴿فطرة الله التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾** سورة الروم/ ٣٠
و**﴿ونَفْسٍ وما سَوَّاها * فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها﴾** الشمس/ ٧ و٨.
و**﴿وماكنا مُعَذِّبين حتى نَبْعثَ رسولاً﴾** الاسراء/ ١٥.

(٢) الزمر/ ٧.

اما حدودها في هذه المنازل فهي المدى الذي تكون فيه قربا من الله تعالى او بعدا بعد اقامة الحجة عليها من اعمالها واختياراتها ونواياها في حياتها الدنيا. وكل هذه الحدود معلومة من الأَزَل عند الله تعالى. فهو لا يسألُ نفقةَ خمسةِ دنانيرَ من شخصٍ بَدَرَمنه البخلُ عند ثلاثةِ دنانير قال تعالى ﴿إِنْ يَسأَلكُموها فَيُحْفِكم تَبخَلوا ويُخْرِجْ أضغانَكُم﴾.[٣]

امّا منازلُ النفس في الدنيا،والتي تبلغها حدودُها في القرب والبعد من الله تعالى،فهي ان كانت توّاقـةً للشهوات فهي نفس امارة بالسوء وان أصاخت الى نداء وزيرها (العقل) فهي، بالانتهاء عن الشهوات الحرام، نفسٌ لوّامـةٌ لا تترك توقها الى الشهوات المخالفة بدون لوم فاذا وافقت فطرتها التي فطرها الله تعالى عليها كانت سليمة ولم تتكلف المعاصي وقد قيل «التلكف هو الخروج عن الاستقامة»[٤] فهي نفس مؤمنة مطمئنة قال صلى الله عليه وآله وسلم (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[٥] فاذا استقرت على الاستقامة على خشية الله تعالى فقد ارضت ربها تعالى وشعرت من رضائه برضىً ذاتي عن الله تعالى ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لِمَن خَشِيَ ربه﴾.[٦] وقال تعالى ايضا ﴿يا ايَّتها النفْسُ المُطْمَئِنةُ إرْجِعي الى ربك راضيةً مَرْضِيَّة فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جنتي﴾.[٧] وهكذا تكون ﴿مع الذين أَنْعَمَ الله عليهم من النبِيّين والصِّديقين والشُّهَداء والصَالِحين وحسُن اولٰئك رفيقا﴾.[٨]

---

(٣) محمد/ ٣٧.

(٤) سمعته في احدى المواعظ ووجدته في مدوناتي.

(٥) رواه الترمذي وابو نصر السجزي عن عبد الله بن عمرو، وحسّنه.

(٦) البيّنة/ ٨.

(٧) الفجر/ ٢٧ ـ ٣٠.

(٨) النساء/ ٦٩.

هل بقى على النفس اكـراه في الـدين وقـد تبين الرشد من الغي؟ ففي الـرشـد تستمسِـكُ بالعروة الوثقى ويصلي عليها الله تعالى ملائكتُه لتخرجَ مع المؤمنين من الظلمـات الى النـور ﴿الله وليُّ الـذين آمنـوا يُخْرِجُهم مِنَ الظُلُمــاتِ الى النُّـورِ﴾[٩] وقـال تعـالى ايضـا ﴿هـو الـذي يُصَلي عليكُم ومَـلائِكَتُـه لِيُخْرِجَكُم من الظُلُماتِ الى النور وكان بالمُؤْمِنين رحيما﴾[١٠] وكمـا احسنت النفس فان الله تعـالى يجـزيهـا بالاحسـان اي انها تعبد الله كأنهـا تراه فان لم تكن تراه فانـه يراهـا. ورؤية الانسان لربه تعالى في الدار الدنيا هي رؤية البصيرة في الشعور بالهيبة الربانية لما عرف من عظمته في خلقـه الـذي عُرِف به. وهذه معرفة قدرِه العظيم. اما ان يَقْدِرَ الانسانُ ربّه حق قدره فدليله الطاعة التامة كما سيلي شرحه باذنه تعالى في الباب التالي . .

* * *

(٩) البقرة/ ٢٥٧.

(١٠) الاحزاب/ ٤٣.

الباب الخامس والعشرون
حق قدره تعالى ومن يقدره حق قدره

يملك الملك الصالح من ملوك الدنيا قلوب رعيته، مع ولايته على امورهم، اذا احسن اليهم. فاذا كان ملك كهذا طاهر الذيل نقي السريرة، رحيما ذا فراسة يعرف الصالح من المجرم فيكافىء الصالح ويعمل على اصلاح المنحرفين اويكف اذاهم عن غيرهم إذا لم يصطلحوا، ثم كان كفؤا لا تفوته صغيرة او كبيرة الا وقال فيها القول الفصل، ثم كان قويا لايقتحم عدوٌّ أرضه إلّا وعاد بالويل والثبور لم تؤثر فيه صغائر الامور ولم تعقه مشكلات العدة والعدد لا يعرف الحقد ولم يبدر منه الا ما كان في مصلحة رعيته، فهل يترك مملكته من رعيته من كان ذا حصافة وعفة من الدناءة والطمع وهم يعلمون يقينا أنّه لا يضاهيه غيره من ملوك زمانه؟ كلا.

ها هي صورة مادية يمكن للذهن ان يتخيلها فكيف اذا كان الملك هو الذي خلق الجسم وبَرأ نسمته اي نفخ فيه الروح، وصوّره في الرحم كيف يشاء **﴿هو الله الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ﴾**.[1] **﴿هُوَ الذي يُصَوِّركم في الارْحامِ كيفَ يشاء﴾**.[2] وهو اعلم بخير العباد مما يضرهم، لولا محبّته لهم لم يخلقْهم ولم يخلق لهم الجنة فهو في غنى عنهم ولولا محبتُه لهم لم يرسل الرسل ليرشدوهم على طريقها؟ كيف اذا علم العبد هذه الصفات وغيرها من الاسماء الحسنى **﴿له الاسْماء الحُسْنى يُسَبِّحُ له ما في السماواتِ والارضِ وهو العزيزُ الحكيم﴾**.[3] وكان العبد وفياً لهذا

---

(١) الحشر/ ٢٤.

(٢) آل عمران/ ٦.

(٣) الحشر/ ٢٤.

الفضل؟ فهل يستبشر بِبَيعِهِ بالمال والنفس في سبيله تعالى ام لا يفقه قدره فيعصيه ويصر على المعصية لينال غضبه وقد قيل «اتق غضبة الحليم»؟ لا شك ان الحصيف يعرف قدر الرب العظيم فيقدره حق قدره بالطاعة التامة لكي يكون عنده عبدا كريما مكرما ﴿**إنَّ اكرَمَكُم عندَ الله أتْقاكم**﴾[4] فاذا بدرت بادرة نسيان اوخطأ أستعاذ به تعالى وعاد اليه وتطهر من ذنوبه بالعبادة وهو يحب التوابين ويحب المتطهرين. قال صلى الله عليه وآله وسلم عن المكفرات: «الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان كفارة ما بينهما ما اجتُنِبَتِ الكبائر». [5] فهو ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾[6] يحب المحسنين والصابرين والمتقين والمستغفرين بالاسحار وكل ذلك اتباعا للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**قُلْ إنْ كُنتم تُحِبونَ الله فاتَّبِعوني يُحبِبْكُم الله ويَغْفِرْ لكم ذنوبَكم**﴾[7] وسيلي الحديث في الباب التالي عن محبته تعالى.

---

(٤) الحجرات/ ١٣.

(٥) احمد في مسنده، ومسلم، والترمذي عن ابي هريرة.

(٦) المائدة/ ٥٤.

(٧) آل عمران/ ٣١.

الباب السادس والعشرون
محبته تعالى واحبابه

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكن لا يعطي الايمان الا من يحب».[1] هكذا القت البلاغة الشريفة للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ضوءً على من أحبّهم الله تعالى اذ يتميّزون بما وهبهم تعالى من الدين والايمان. ولكن هذا يدعوهم لحراسة هذه الجوهرة الثمينة فالهديّة الثمينة تتعب صاحبها في حراستها فيزداد الحريص يقضه على دينه ويزداد تمسكا به ويزداد شوقا لشكر الملك الوهاب الذي شعر بمحبته واحتار كيف يقابلها اي كيف يشكره تعالى عليها.

ينال العبد في سيره نحو الله تعالى نفحات سرور وحبور يستدل منها على مدى حب آلله تعالى له. واول ما يشعر به هو الزهد بالدنيا مع الدأب فيما آتاه الله تعالى منها لأعلاء كلمته والتمسك بشريعته ودحِر اعدائه ﴿**وأَعِدوا لهم ما اسْتَطَعْتُم**﴾[2] وهذا اول الغيث قطراً ثم ينهمر فالله تعالى لم يقسر قلب المؤمن على الزهد بالدنيا بل اذاقه ما هو اسمى منها فزهد فيها فالدنيا هي هي باقية بارضها وما عليها من زينة ﴿**انا جَعَلْنَا ما على الارض زينةً لها لِنبلوَهم ايُّهم اَحْسَنُ عَمَلا**﴾[3] والحياة الدنيا على ظهرها هي البلاء فلولاها لما تحددت المنازل وقامت الحجج فالطبيعة الدنيوية من ارض وزينة وشهوات لم تتغير ولا تتغير، سواء زهد فيها العبد او افنى

---

(١) الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود. وقد تقدم.

(٢) الانفال/ ٦٠.

(٣) الكهف/ ٧.

حيـاتـه من اجلهـا، ولكن الـذي يتغير هو نظرة العبد لها. فالزهد فيها ليس بغضهـا او كراهـة الحيـاة فيهـا، بل هو معرفة حقيقتها بنور الله تعالى وليس بزخرف القول الذي يوحيه شياطين الجن والانس غرورا. فاذا عرف القلب ما هو اسمى من الـدنيـا فلا يتـرك لهـا مجالاً فيه لأنه لا يراها سوى مركبةً او مطيـةً الى الآخـرة لينال فيها جوار الله تعالى ورضاه وهو المكسب الصحيح للدنيا والآخرة. **﴿ربنا آتنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخرة حسنة وقِنا عذابَ النار﴾**.[٤] وقال تعالى: **﴿ورضوان من الله اكبر﴾**[٥] فالذي هو اسمى من الـزهـد بالـدنيا هو الانشغال بالله تعالى اي طلب رضوانه بالاتباع الصحيح وليس بتلمّس ظواهر الزهد من تقشف قد يصل للبخل او للاعجاب بالنفس ومن تقاعس عن إعدادِ الدنيا لاعلاء كلمة الله تعالى وحماية البلاد ومنفعة العبـاد وحفـظ ماء الوجه. ورضوان الله تعالى يكون في تحرى العبد لاتباع الافضـل في اعمـاله اي عمل الاصلح وان كان في نبذ الدنيا اذا تعارضت مع الرضوان فالمريض يترك الطعام الشهي اذا تعارض مع شفائه كما هي الحِمْية.

من دلائـل تحـري رضـوان الله تعـالى: النيـة الصـادقة لكل عمل كما كانت نية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من الهجرة الشريفة قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم «... فمن كانت هجرته لله ورسوله فان هجرته لله ورسـولـه ومن كانت هجـرته لدنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته إلى ما

---

(١) الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود. وقد تقدم.

(٢) الانفال/ ٦٠.

(٣) الكهف/ ٧.

(٤) البقرة/ ٢٠١.

(٥) التوبة/ ٧٢.

هاجر اليه»[٦] ويكمل المؤمن عند الله تعالى بكمال النية فلا يهم قصوره في بلوغ الكمال في تطبيق النية الكاملة قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نيّة المؤمن خير من عمله». [٧] ومن دلائل تحرى رضوان الله تعالى محبة الله تعالى ومحبة الذين يحبهم الله تعالى واوّلها محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اكثر من امه وابيه ونفسه التي بين جنبيه ثم يفضل ان يلقىٰ في النار ولا يسلب من ايمانه شيء. والمحبة لله ومن نفحات المحبة ان احد اصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم دعا لاحد اصحابه عندما صرح له(بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم)بمحبته بقوله «أحَبَّك الذي احببتني له»[٨] فالمحبة للصادقين هي لتحلّيهم بالصدق.فالرجال يُعرَفون بالحق الذي معهم. ومن علامة المُحِبّ النُّصْحُ للمؤمنين وللناس كافة و«من غشنا فليس منا». [٩]

تتوالى نفحات المحبة الربانية للعبد المتبع بصدق حتى يكسبه الله تعالى الفهم الصحيح السريع اي النظر بنور الله تعالى حتى يبلغ به المقام بعبادة الله تعالى حُبّاً وليس طمعا بجنة، وان ارادها، وخشيةً خجلاً منه تعالى وليس اتقاء للنار وإن استجار بالله تعالى منها. وحتى يبلغ به التوكل الى القناعة والكرم والجود والصبر وحب المساكين والاستتار على البلوى

---

(٦) رواه الشيخان واحمد والترمذي وابن ماجة وابو داود والنسائي عن عمر. والطبراني عن سهل بن سعد.

(٧) الديلمي في مسند الفردوس كما ورد في الجامع الكبير ص ٨٥٨.

(٨) رواه ابو داود باسناد صحيح «ان رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمر رجل به فقال يا رسول الله اني لاحب هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أأعلمتَه؟ قال: لا. قال اعْلِمْه. فلحقه فقال: اني احبك في الله. فقال: احبك الذي احببتني له.»

(٩) رواه مسلم.

واظهار النعمة بما يقره الشرع ، فاذا بكل حياته عبادة مهما كان له من عمل يقـره الشـرع فيكون كسبه طيبا فيقبل الله تعالى منه الزكاة والصدقات ويرثه راضيا عنه ﴿**ونحن الوارثون**﴾[١٠] ﴿**انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعـون**﴾[١١] ومن دلائـلِ القناعةِ والحلالِ والكرمِ حصولُ البَرَكةِ الربانية الى حد الكِفاية في كل امر ﴿**اليس الله بكافٍ عبْدَه؟**﴾[١٢]

وتتـوالى نفحـات الرحمن لمن يحبّهم بما يعلّمهم من سبل الخير وبما يلقي في قلوبهم الصافية . فقد تركوا الاثام وتوكلوا على الله ووقّروه فدخلوا في جولة هادئة رفيقة للاستزادة في علومه التي يؤتيها من لدنه فقد وعدهم بذلـك ﴿**واتقـوا الله ويعلمكم الله**﴾[١٣] فيكـون العبـد بتحـرى رضوان الله تعـالى قد دخـل في ولايته للصالحين ﴿**ان وليَّ الله الذي نَزَّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين**﴾ .[١٤] وفي الزيادة يتحرى الاستقامة فلا يأمن الفتنة . واما الـولايـة الـربـانيـة فلهـا حديث مقتـرن مع غيـرته تعالى على قلوب عباده الصادقين كما سيعرض له الباب التالي بعونه تعالى .

---

(١٠) الحجر/ ٢٣ .
(١١) مريم/ ٤٠ .
(١٢) الزمر/ ٣٦ .
(١٣) البقرة/ ٢٨٢ .
(١٤) الاعراف/ ١٩٦ .

البـــاب السابع والعشـــــــــرون
ولاية الله تعالى للصالحين وغيرته عليهـــم

قال تعالى : ﴿**ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم**﴾[1] قال تعالى ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النـور**﴾ .[2] فالمؤمن الحق المتبـع لرضـوان الله تعـالى يبدأ في سلوكه إما بمعـرفـة الله تعـالى من معـرفـة الفقـه والشـرع الحنيف فيكـون اولا عالما بالشـريعـة فأذا تمسّـك بعلمـه تطبيقـا بخلوص النيـة فقد وصل الى محبة الخـالق جل وعـلا وأخـذ يتحـرى رضوانه بالحفاظ على الاستقامة وهؤلاء العلماء العاملون الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يخشون احداً الا الله قد عنـاهم الله تعـالى بانهم ﴿**طـائفةٌ مِنْهُم لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوْا قومَهُم إذا رَجَعُوآ اِليهم لعلَّهم يَحذَرُوْنَ**﴾[3] فهم الهُداة ولهم الفضل على قومهم فلا يوفيهم قومهم الحق مهمـــا خدمهم طلاب علمهم وقـدمـوا لهم النعـال بل يجـزيهم ربهم الجـزاء الاوفى . أوأن يبـدأ المؤمن انطـلاقا من محبتـه لله تعـالى بالتعـرف على شريعتـه ليعبده تعالى كما علّم اهل العلم بذلك فيتعهد المساجد ومجالس العلم متأدِّباً (اي تاركا غير الله تعالى) في قصدة من طلب العلم ومخلصا فينهل من الفقه والعلم ما شاء الله له حتى يكـــون كأخيـه المؤمن الـذي بدأ بالعلم وجمـع معـه المحبـة وهـو قد بدأ بالمحبـة وجمـع معها العلم فالمؤمن العالم المحب هو الصالح لولاية الله

---

(١) محمد/ ١١ .

(٢) البقرة/ ٢٥٧ .

(٣) التوبة/ ١٢٢ .

تعالى ورد في الخبر ان ﴿**ما اتخذ الله ولياً جاهلا ولو اتخذه لعلّمه**﴾[٤]

فماذا يكون شأن المؤمن الصالح الذي تولاه الله تعالى؟ هل سيأمن الفتنة؟ وهل سييأس من رحمة الله تعالى؟ كلاّ فالمؤمن بين الخوف والرجاء، «يرجون رحمته ويخافون عذابه». [٥] فالذي يشعر بولاية الله تعالى يكون قد احسّ بعِظَمِ الهديّة التي تزيد صاحبها تواضعا ووفاء واحسَّ بِغَيرة الله تعالى على هديته ونوره وعلى موضع نوره اي قلب الولي الصالح وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: عن ربه قوله تعالى ﴿**وسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع**﴾[٦] فإذا حاول شيطان، ممن يَقِفُون على راس كل سبيل غير سبيل المؤمنين يدعون الى النار، ان يجرأ على تضليل قلب عبد مؤمن حقاً فإن غيرة الله تعالى تدرك القلب وتقف كمراقب يرقب استقامةَ ذلك القلب على الصراط دون الالتفات الى دعوات الشياطين. فالغيرة اذن تكون على النور الذي في قلب المؤمن لكي يبقى معه ما استقام. وفي الحديث الشريف «ان الله تبارك وتعالى يغار وغيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم الله». [٧] فاذا انحرف واصرّ على الانحراف ابتعد عن صلته بالنور، الاّ ان الله تعالى قد علّمه كيف يستقيم وفهّمه علامات ذلك واكسبه ذوق حلاوة الايمان. ويجدر ذكر طائفة من علامات استقامة العبد المؤمن حقاً أي علامات دوام نور الله في قلبه ودخوله في ولايته وغيرته تعالى:

---

(٤) اورده الغزالي في البداية وجاء في (المقاصد الحسنة) انه اشتهر على الالسنة وليس بحديث ثابت.

(٥) الاسراء/ ٥٧.

(٦) رواه الطبراني من حديث اوّله: «ما وسعني سمائي ولا ارضي ولكن.. الحديث.

(٧) البخاري عن ابي هريرة.

ـ اذا لم يـرض العبد في غير ذات الله تعالى آمراً وناهيا. قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم عمّن اتخـذوا الاحبـار والـرهبان اربابا من دون الله: «شرعوا لهم من الدين ما ليس فيه فأطاعوهم فتلك عبادتهم». [٨]

ـ اذا اِمْتَعَـك وجهُـهُ للمنكـر فبذل ما استطاع لتغييره، والمهم هنا كمال النية وليس مرحلة العمل بقدر ما اباح الشرع الحنيف باليد أو اللسان او القلب فان «نية المؤمن خير من عمله». [٩]

ـ اذا اعطت يمينه واخفى ذلك حتى عن شماله.

ـ اذا احب المسـاكين. فقـد سأل الـرسـول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ربه تعالى حب المساكين. [١٠]

ـ اذا عفـا عنـد المقـدرة عفواً يحبه الله تعالى وليس تهاوناً في حدود الله التي لا مجاملة فيها.

ـ اذا لـم يُعِنْ ظالمـا على ظلمـه. قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم: «من اعان ظالماً سلّطه الله عليه». [١١]

ـ اذا رفض قبول ظلم ظالم وهو يعلم ان من يحميه اقوى على عصمته او يتخذه شهيدا على ان لا يرى لنفسه فضلا فيسلط الله تعالى عليه بذلك من يشاء. قال تعالى: ﴿ولو شاء اللهُ لسلّطهم عليكم﴾[١٢]

ـ اذا لم يحرك لسانه بما ليس في قلبه.

ـ اذا أعرض عن الدنيا الاّ لله تعالى وما يوصل الى محبته تعالى.

---

(٨) الترمذي عن عدي بن حاتم.

(٩) الديلمي في مسند الفردوس.

(١٠) قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم «اللهم اني اسألـك حب الخيـرات وترك المنكرات وحب المساكين ـ الحديث. رواه احمد في مسنده والطبراني في الكبير عن ثوبان.

(١١) صاحب الفردوس بمسنده وابن عساكر في تاريخ دمشق وكلاهما عن ابن مسعود.

(١٢) النساء/ ٩٠.

- اذا صبر في الضراء وشكر في السراء.
- اذا اعرض عن اللغو واعرض عن الجاهلين.
- اذا اتقى الشبهات بحيث يترك سبعين باباً لا بأس به خوفا من الوقوع في باب به بأس.
- اذا استوى عنده المدح والذم فلا يأخذه الفرح من مدحٍ الّا السرور من المدح من مرشده الصادق كدليل على رضى الله تعالى. ولا يهمه الذم طالما لا يعرف خاتمته لعله يكون دون ذلك قدراً.
- اذا تعهد المساجد ومجالس الصالحين عندما يعظون او يعلّمون الفقه في الدين.
- اذا نصر الله تعالى في كل ما آتاه من عدّةٍ وعدَدٍ واستطاعة.
- اذا كان قواما بالقسط في شهادته ولو على نفسه او الوالدين او الاقربين. اي لاتأخذه في الله لومة لائم.
- اذا لم يوجه نعمة الله تعالى لدنيا يصيبها لنفسه.

كما ان من علامات ثبات العبد في ولاية الله تعالى واحدة او اكثر من الاحوال التالية:

- اذا تولاه مرشد صالح يعمل بعلمه «العلماء ورثة الانبياء». (١٣)
- اذا توالى دفاع الله تعالى عنه على لسان ويد جنوده من خلقه.
- اذا استحب الاستشارة والاستخارة في حالة حيرته ثم اتبع أحسن القول.
- اذا كان حنيفاً اي يجد في قلبه ميلا وانعطافا للحق فلا يخدعه زخرف الباطل.
- اذا كان اول ما يتحرك في فكره حال نهوضه من النوم ان يبادر الى اسباب العبادة.

---

(١٣) احمد واهل السنن الاربعة عن ابي الدرداء وصححه ابن حِبّان والحاكم.

- اذا لم يخالط صدره ما يخشى ان يطلع عليه الناس فهو الاثم.
- اذا زادت معرفته باعراض زيغ القلوب كما يعرف الطبيب الحاذق اعراض الامراض. وهنا يصل الى تمييز المبررات الي اسماها الله تعالى بـ(المعاذير) فلا يُسوِّغ لنفسِهِ ما لا يقبله من مؤمن غيره.

يرى المؤمن كل هذه الدلائل والعلامات حسب موقفه من الرجاء والخشية ففي حال الرجاء لا يراها صعبةَ الثباتِ مع سعة رحمة الله تعالى وعونه. وفي حالة الخشية فهو على تخوّف من الزيغ يوازنه رجاء ويقين بمن يرجو. فالغاية من هذه الدلالات والعلامات ليس تقييم العبد المؤمن قبل يوم الحساب بل تقييم عبادته للخالق هل عرف قدره تعالى فقدره حق قدره؟ أم أنه يعبده من اجل اموره الدنيوية؟ فالمهم هو المعبود في كل حال. والله تعالى هو الذي ييسّر للمؤمن سبيل هذا الدين المتين فيدخل فيه بين الخوف والرجاء برفقٍ قال صلى الله عليه وآله وسلم «ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق»[١٤].

فما ثبت المؤمن على التمسك بالايمان ثبتت له الولاية فلا يخاف دركا ولا يخشى والله تعالى قد جعل من كتابه الكريم ﴿**تذكرة لمن يخشى**﴾[١٥] فيكسبه الله تعالى من القرآن الكريم التمسك وحسن الظن بالله تعالى فتأتيه بشارة: ﴿.. **الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الّا تخافوا**﴾[١٦] أي عدم الخوف في حياتهم الدنيا إلا من الله تعالى. «**ولا تحزنوا**» أي عند ساعة اللقاء في نهاية مطاف الحياة و﴿**ابشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها**

---

(١٤) احمد عن انس، والبيهقي عن جابر.
(١٥) طه/ ٣.
(١٦) فصلت/ ٣٠.

ما تشتهي انفسكم ولكم فيهـا ما تدّعـون نُزُلاً من غفـور رحيم﴾. [17]
فالثبـات امـل الخائفين وخشية الراجين وسبحان من جمع الخوف والرجاء في الاستقـامـة. وجعلهـا سببـا لثبـات ولايتـه. وجعـل ولايتَـه غيرةً ودفاعاً وتعليمـاً واكثـر وقـد ورد القـول عن غيـرتـه تعالى. وفي الباب التالي، بعونه تعالى، شيءٌ يُقاس عليه في دفاعه تعالى عن اوليائه وفي تعليمه اياهم.

* * *

(١٧) فصلت/ ٣٢.

البــاب الثامن والعشـــــرون
تعليم الله تعالى للمؤمنين ودفاعه عنهــم

تقــدم في هذا الـكـتــاب تعــريف مواقــع المؤمنين واحــوالهم في سيــاق سيــرهــم في سلوك طريــق الــعــبــادة. ويــكــون تعليم الله تعالى لهم ودفاعه عنهم كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وحقيق وعـدِهِ. وقـد اظهـر كثيـر من الصالحين مقدرة الله تعالى فيما جرى عليهم من ذلك حتى ان احدهم كان في سجن من أجل دينه لكي يقول ما يخالف علمه ويقينه وجُلِدَ بالسياط لكي يفعل ذلك فتقدم منه قاطع طريق كان في السجن وقـال له على انفـراد بأنـه تحمـل آلاف السيـاط وهو على باطل ولم يقر بما ارادوا فالأَوْلىٰ به (اي بالرجل الصالح) ان يثبت وهو على حق فثبّتـه الله تعـالى بذلـك التعليم.[1] وكان آخرُ قد جُلب من مصر مقيدا بالحـديـد الى دار الخـلافـة في بغداد بعد ان اتهم باقوال نسبت اليه وتدل على الضـلال وقبـل ان يصـل الى دار الخلافة تقدمت اليه عجوز وقالت له (اذا ادخلت على . . . . . . (وذكـرت كنيـة الخليفـة) فلا تَهَبْهُ ولا ترى انه فوقـك ولا تحتـجّ لنفسـك، محِقّاً كنتَ اومُتَهماً، لأنك ان هِبْتَه سلّطه الله عليـك وان حاججت عن نفسـك لم يزدْك ذلـك الا وبـالاً لانك باهتّ الله فيما يعلمه وان كنت بريئا». ثم اردفتْ قائلة «فادع الله تعالى ينتصرْ لك ولا تنتصـر لنفسـك فيَكِلَك اليهـا» فقال لها الرجل: «سمعاً وطاعةً» فلما دخل على الخليفـة وسلم عليـه بادره الخليفـة بالسؤال: «ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة؟» فسكت. فقال الوزير «هو حقيق عندي فيما قيل فيه»

---

(١) طبقات الاولياء للشعراني

واستفسر الخليفة منه: «لم لا تتكلم؟» فقال الرجل: «يا امير المؤمنين، ان قلتُ لا فقد كذّبت المسلمين. وان قلتُ نعم. كَذَبْتُ على نفسي بشيء لا يعلمُـه الله تعـالى مني. فافعـل ما ترى فأني غيـرُ منتصـرٍ لنفسي». فاذا بالخليفـة يقـول «هـو رجـل بريء مما قيل فيه» فاخلي سبيله وخرج وقصد العجوز وقال لها ـ «جزاك الله عني خيرا. فعلتُ ما أمرتِني به فمن اين لك هذا؟» قالت «من حيث ماخـاطب به الهـدهـد سليمـان عليه السلام». [٢]
وهكـذا جاءت الاشـارة في الاخير الى تعليم الله تعالى الذي علّم سليمان (ع) على لسان هدهد بما هو حال سبأ فلا عجب ان يعلّم عباده الصالحين على لسـان اخـوانهـم. ولم تر العجـوز لنفسها أثراً كما لم يكن للهدهد أثر أزاء قدرته تعالى في نطق الهدهد لأمر كان مفعولا. فالمولى جلت قدرته، مع كبـريـائـه وعظمتـه يتكـرم بالتعليم بلطف خفي يظنـه الذين لا يعلمون (صـدفـة) ولا توجـد صدفـة مع تقـديـر الله تعـالى الذي ابرمه قبل حدوث السبب لعلمه بما سيتسبب فيه.

ومن تعليمـه تعـالى بمـا يثبت للمتعلم صحته هو الرؤيا الصادقة. ومن المعروف ان الشيطان لا يأتي بصورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الـرؤيـا، [٣] ولهـذا تكون رؤية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في المنام هي رؤيا صادقة. ومن هذا القبيل ما حكي عن واعظ من الصالحين كان يفسـر الـقـرآن الـكـريـم في مسجـد حضـره من العـارفين بالله شخص سألـه عن معنى قولـه تعـالى: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾[٤] فلم يكن

---

(٢) المصدر السابق.

(٣) قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم: «من رآني في المنـام فقـد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل بي». متفق عليه.

(٤) الرحمن/ ٢٩.

للواعظ ان يتحدث عن الله تعالى وشؤونه الا أن يراجع كتبه أو شيخه فأمهل السائل الى الغد ولكنه لم يعثر في مراجِعِه على جواب شاف فأخذته سِنةٌ من النوم واذا به يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام يقول له «اذا جاءك السائل في غدك فقل له امور يبديها ولا يبتديها، يرفع اقواما ويضع آخرين، كل يوم هو في شأن» (ويفهم من هذا ان الامور التي تجري على الناس مبدوءة في الأزل في علمه تعالى ويأذن بظهورها عندما يشاء).واستيقظ الواعظ مسرورا مصليا على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم شاكرا لله تعالى تعليمه. وجاءه من سأله في أمسِهِ وهو ينتظر الجواب فاجابه بما تعلمه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

اما تعليم التخبّط الذي وقع فيه الذين اتخذوا من دون الله تعالى شركاء فأنه ليس تعليماً بما يعنيه تعلم المؤمن من مرشده بل تعليم الشيطان الذي يوحي زخرف القول غرورا ولتصغىٰ اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون. فالحذر الحذر من علم لا ينفع فقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالله تعالى من ذلك.[٥]

. امر الله تعالى رسوله الكريم بأن يسأله زيادة العلم: **﴿وقل رب زدني علما﴾**.[٦] لهذا فلا يتوقف عن طلب العلم والدعاء من الله تعالى بالزيادة الّا غافل او مستكبر. والّا فتركُ الدعاء بحدّ ذاته سببه الاستكبار.

وسيلي الحديث عن استجابته تعالى في الباب التالي ولكن يجدر في هذا الباب بيان دفاعه تعالى عن المؤمن ناصراً، فالله تعالى ينصر من

(٥) قال صلى الله عليه وآله وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجه عن جابر باسناد حسن.

(٦) طه/ ١٤٤.

ينصـره وينصـر العبـدُ ربّـه اذا دحر في نفسه ما يأمره به الشيطان وأعلى في نفسـه ما يأمـره الله تعالى به . وهذا ينطبق على جماعة المسلمين فانهم ان تكـاتفـوا يداً واحـدة على اعلاء كلمة الله تعالى فيما بينهم فكان حكم الله فيهم هو المبتغى (اي الغـايـة المرتضاة)، كان نصره لهم وعدا مفعولا وقد نص تعالى على النصر بانه حصرا من عنده **﴿وما النصرُ الّا من عند الله﴾**(٧) وجعله وعـدا حقـا للمؤمنين **﴿وكـان حقّـاً علينا نصرُ المؤمنين﴾**(٨) وعرّف المؤمن بأنـه من رضى بالله تعـالى ربـا وبـالاسلام دينا وبمحمد صلّى الله عليه وآله وسلم نبيا ورسولا وهم الذين اذا ذكر الله وجِلَتْ قلوبُهم وإذا تليت عليهم آيـاتـه زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقهم ينفقـون والـذين يحكّمون الرسول (وهو يحكم بما انزل الله تعالى) فيمـا شجـر بينهم ثم لا يجـدون في انفسهم حَرجـاً ممـا انـزل الله تعـالى وسلمـوا تسليمـا . فمن لم يلتـزم بهذا الامر فان الله تعالى غالب على أمرِهِ قادرٌ على ان يسلط عليهم اعداءهم وفي ذلك تكون الغلبة لله تعالى **﴿والله غالب على امره﴾**(٩) قال تعالى **﴿واتقوا فِتنةً لا تُصِيْبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾**(١٠) ولا يلتزم بهذا الامر الّا من جاهد في نفسه وجاهد هواها المخالف للشريعة وجاهد نزعات الشر الى الخير فيرجى له ان يجاهد اهل الشـر من اجـل الخيـر مع المجـاهدين الذين اعلى الله تعالى درجتهم فقد **﴿فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد**

(٧) آل عمران/ ١٢٦ .

(٨) الروم/ ٤٧ .

(٩) يوسف/ ٢١ .

(١٠) الانفال/ ٢٥ .

الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما﴾[11] وذلك عندما تتوفر اركان الجهاد من عَدَدٍ وعُدّة يرهبها عدو الله وعدوُهم فاذا لم يتوفر العدد ولم تتوفر العدة التي ترهب العدو فان الجهاد لا يبطل بل يكون المؤمنون في مجاهدة النفس نحو الصلاح ونحو توفير العدد والعدة المرهبة ليكونوا اهلا لمجاهدة الكفر نحو الباطل. فالنبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم جاهد بالصادقين ولم يقبل في صفوفه المنافقين اذ امره الله تعالى ان يقول لهم **﴿لن تَخرجوا مَعِيَ ابداً ولن تُقاتِلوا مِعيَ عدوّا﴾**.[12]

ولا يبقى بعد وضع العدد والعدة المستطاعة المرهبة للعدو الّا الدعاء كما فعل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فإنه دعا بالنصر واردف دعاءه بايضاح المقصود من كل ذلك بأنه الله تعالى: «إن تَهْلَكْ هذه العصابةُ لم يبقَ على وجهِ الارض احدٌ يعبُدُكَ»[13] فالعبد يدعو ربه من اجل ربه وتكون قيمة الداعي بقيمة الدعاء ولا شيء اثمن من الله تعالى وهذا ما سيتناوله الباب التالي بعونه تعالى.

---

(١١) النساء/ ٨٩٥

(١٢) التوبة/ ٨٣.

(١٣) البخاري عن ابن عباس.

الباب التاسع والعشرون
استجابته تعالى لعباده

قال تعالى ﴿ادعوني استجب لكم﴾[1]

ان الاستجابة لله تعالى احسانٌ من الناس لأنفسهم ولكنه احسان يدل على سموٍّ بالانسانية الى الانتماء لولايته تعالى وقد قال تعالى ﴿هل جزاء الاحسان اِلاّ الاحسان﴾[2] فهل جزاء أستجابة العبد المحسن للسؤال والتعبد إلّا الأستجابة من الرب المحسن بالكرم؟ وها هو احسانه للصالحين على صلاحهم اذ تولاهم بغيرته حتى بلغ من ذلك أن أرسل عبداً عالماً ومعه رسول زمانه سيدنا موسى (عليه السلام) كما جاء في سورة الكهف لبناء جدار كاد أن ينقض وكان ليتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا. فصلاح ابيهما أفاد صلاح حال الغلامين بولاية الله تعالى لهما.

المحسن بالاستجابة هو الله تعالى، وينبغي على العبد ان يحسن في السؤال. قال صاحب غنم لسيدنا موسى عليه السلام: مالي ادعو الله تعالى فلا يستجيب لي؟ فأوحى الله تعالى الى سيدنا موسى «انه يدعوني وقلبه مع غنمه».[4] وسئل احد الصالحين سلام الله عليهم: «لِمَ ندعو ولا يُستجابُ لنا؟» فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفون».[5] وهناك دلالات على ساعات الاستجابة واحوال الاستجابة وصفات الداعي والمدعو له. وهناك

---

(١) المؤمن/ ٦٠.

(٢) الرحمن/ ٦٠.

(٣) الكهف/ ٧٧.

(٤) و(٥) القشيري في رسالته في باب الدعاء.

ذكر المستحب من الدعاء والادعية المأثورة ويمكن تفصيلها في صفحات او اجمالها في سطور ولكن المهم من الدعاء ان يفهم العبد موقعه من الفقر مع رب غني كريم وموقعه من الضعف يستمّد القوة من قوى متين يعزّه بحماه ويفهم العبد انه انما يدعو ربّاً لا يملك رحمتَه احدٌ ولا يبلغ حكمتَه احدٌ وهو الودود الذي يشكر عبدا اصلح نفسه للجنة وهو الغفور الذي يقبل التوبة ويبدل السيئات حسنات والمطلع على ما ظهر وما خفي كما هو مطلع على ما في السماء وما في الارض ولا يكون في ملكه الّا ما يشاء ولا ينزع رحمته مالم يتبدل العبد عليها. فماذا ينبغي على العبد الذي وقف بين يدي من يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ان يفعل؟ هل يدعو بلسانه لشخصٍ يسمعه ويخفي في قلبه رغبةً اخرى ضدّه؟ هل يطلب مستحيلا مخالفاً لسنة الله في خلقه كمن يدعو بالنصر لمن يحارب الله تعالى؟[٦] هل يطلب قصرا معينا او امرأة باسمها وهو لا يعلم مستقبله كيف يكون؟ هل يدعو بشيء قليل من رب كبير من رب كثيرٍ واكثر واكبر قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اذا دعا احدكم فليُعظِمِ الرغبة فان الله لا يتعاظَمُهُ شيء».[٧] هل يدعو لغيره بالنجاة وهو احوج ما يكون اليها فينسى نفسه؟ هل يدعو بالشرّ على من يرجى صلاحه وهل يليق الدعاء الشر على احد في وقفةٍ بين يدي الرحمن؟.. وما ادراك ما هذه الوقفة؟ إنّها رُقيٌّ الى عرش المدعو منه جل جلاله وغمرٌ في قدسِ نوره لا يملك الداعي اذا شعر به الا ان يُسبِّح بحمده فيذكر المحبة ويجعل الدعاء تعظيماً لله تعالى بتضرعه له وبعد الثناء عليه تعالى يتذكر من أوصله الى هذه المنزلة صلى الله عليه وآله

(٦) قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من دعا لظالم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله في ارضه» رواه ابن ابي الدنيا في كتابه الصمت عن الحسن.

(٧) ابن حِبّان عن ابي هريرة.

وسلم فاكثرَ من الصلاة عليه وعلى أحبابه اهل الجنة فقد رفع الله تعالى ذكره ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾[8] ويذكر انه انما وقف هنا ليسأل مع الادب فلا يطلب إلّا احوالاً عامةً له وللمسلمين بالزيادة علماً وتوفيقاً لرضى الله تعالى ونصراً وتثبيتاً ونوراً وهدى وايماناً ويقيناً وعافيةً وقوةً وبركاتٍ في ما اعطاه تعالى اياه وعزا اعز الله به المؤمنين في الدارين ومغفرةً ورضواناً ويسرا وفرجاً وسروراً وصلاحاً للبال ورحمةً وعفةً وتقى وغنى عن الناس ومحبة وعبادة وقربا ونزلا مباركا في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فعندئذ يكون دعاء المؤمن قد دار حول مقصود واحد هو كسب الله تعالى أي كسب قربه ورضاه فهل يطلب بعد ذلك دنياً كتب عليها الفناء و«حب الدنيا راس كل خطيئة»[9] كما قال صلى الله عليه وآله وسلم. هذا ما علمنا اياه محمد رسول المحبة والجهاد صلى الله عليه وآله وسلم عندما دعا ربه بعد الحمد والثناء «اللهم اهدنا في من هديت وعافنا في من عافيت وتولنا في من توليت وبارك لنا في ما اعطيت وقنا شرَّ ما قَضيت . . » ثم عاد صلى الله عليه وآله وسلم الى التسبيح بحمده تعالى انك تقضي ولا يقضى عليك انه لا يذلّ من واليت ولا يعزّ من عاديت تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أوليت، نستغفرك ونتوب اليك ونؤمن بك ونتوكل عليك»[10] وهكذا طلب صلى الله عليه وآله وسلم الهدى الى الله

---

(٨) فاطر/ ١٠.

(٩) ابن ابي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شُعب الايمان عن الحسن. ورد عنه في المناوي جـ/٣ ص ٣٦٨ كونه عن الحسن مرسلا.

والعـافيـة ممـا سواه ثم ولايـةً وبـركة في ما اعطى ووقاية من شر ما قضى . وجعل الدنيا مطية للآخرة ثم اكد الايمان والتوكل والحمد لله تعالى اولا واخِراً .

* * *

(١٠) عن الحسن بن علي . حديث صحيح رواه البيهقي وابو داود وحسنه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

خاتمـــــــــة

الحديث عن الله تعالى نور في القلب ويطيب للعبد المؤمن على قدر ميله نحو الطاعة وانعطافه الى النوافل التي تقربه من الله تعالى. ولا ينتهي هذا الحديث لأنه تعالى اكبر من ان يتحدّدَ الثناءُ عليه بكلماتٍ في كتابْ. انمـا المهم في هذا الحـديث ان تكـون لدى المؤمن معرفةٌ يذوق حلاوتها فيتشـوّق للمـزيـد لمعـرفـة الله تعـالى بأنـه الـه واحـد لا يتصل به غيره الا بالعبـوديـة لأنـه تعالى خلقه لعبادته وانه تعالى لا يحصىٰ ثناء عليه فهو كما اثنيِ علىِ نفســه.[1] ﴿**اِليــهِ يصعــدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعمــلُ الصــالـحُ يرفعه**﴾.[2] ويأتي المـزيـد من العلم عنـه والمعـرفـة به لطالبيها على قدر سعيهم لذلـك واستـزادتهم منـه من اهـل الشكـر والـذكر والعلم فهو العلم النافع الذي يسعف بالخشية ويوجه للانطلاق نحو الافضل ويكسب العبرة ويـزيـد الثقـة بالرب القدير وبذلك يذوق الانسان معنى الحرية الصحيحة اي التحـرر من كل ما يتجـه اليـه المشـركون في عبادتهم لغير الله تعالى. والعمـر ينفـذ ولا يصـل العبـد لكمـال معرفته تعالى ولكنْ حَسْبُ العبدِ من الكمال خلوص نيته الصافية في تعظيم الخالق الواحد وبذلك تكون حياتُه ذات قيمـة كاملة وقيمتهـا بالله تعالى مقصودا، وقيمتها بالأدب الصادق في طاعته والخجل من معصيته والسعي لتحرى رضاه. فهذا هو نعيم النفوس وجنةُ الدنيا فاذا كسب الله تعالى جاراً في الآخرة فقد اتم الله تعالى له نوره في جنـة الآخـرة ﴿**ولمن خاف مقـام ربـه جنتـان**﴾[3] فمن كان يرجو ذلك

---

(١) سُمـع في سجـوده صلى الله عليـه وآلـه وسلم يقول «لا أُحصي ثناء عليك، انت كما اثنيت على نفسك» رواه مسلم عن عائشة.

(٢) فاطر/ ١٠.

(٣) الرحمن/ ٤٦.

فليفـر الى الله ﴿فمن كان يرجـو لقـاء ربـه فليعمـل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا﴾ . (٤)

اللهم صل وبارك على الرحمة المزجاة محمد وعلى آله الذين طاب له ان يجمعهم المؤمنـون معـه في الصـلاة عليـه فأمـرنـا بذلـك وصـلّ على اصحـابـه الكرام الذين صدقوا معه في ساعات العسرة، الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة واجعلنا من الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم . (٥) آمين .

---

(٤) آخر سورة الكهف .

(٥) مأخوذة من خواتيم سورة الحشر في صفات المهاجرين والانصار ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

المصــــــــادر

١ ـ القـرآن الكـريم ـ تفسيـر ابن كثيـر: ـ تفسيـر القرآن العظيم لابي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي.

٢ ـ احياء علوم الدين. لابي حامد الغزالي.

٣ ـ الجامع الصغير في اصول الحديث. للمناوي.

٤ ـ طبقات الاولياء للشعراني.

٥ ـ صحيح البخاري.

٦ ـ صحيح مسلم.

٧ ـ مسند احمد بن حنبل.

٨ ـ صحيح الترمذي.

٩ ـ الشُّعب للبيهقي في الحديث.

١٠ ـ مسند الفردوس للديلمي.

١١ ـ مسند ابي داود.

١٢ ـ رياض الصالحين للامام النووي.

١٣ ـ الرسالة: ـ لابي هوازن القشيري.

١٤ ـ روضة العقلاء لابن حِبّان.

١٥ ـ التاريخ للبخاري.

١٦ ـ الادب للبخاري.

١٧ ـ المستدرك للحاكم.

١٨ ـ الجامع الكبير للطبراني.

١٩ ـ الهداية في الفقه الحنفي.

٢٠ ـ الحلية لابي نعيم.

٢١ ـ الامالي لاحمد بن فارس.
٢٢ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر.
٢٣ ـ بداية الهداية لابي حامد الغزالي.
٢٤ ـ ذم الدنيا لابن ابي الدنيا.
٢٥ ـ محاضرات في التاريخ الاسلامي د. عماد الدين خليل.
٢٦ ـ خطب ومواعظ مسجلة ومدونات مخطوطة محفوظة عندي